

الأدب العالمي للناشئين

روبينسون كروزو



دانيال ديفو

روبڻسون ڪروزو

روبسون كروزو

تأليف
دانيال ديفو

ترجمة
مروة ماهر الحق

مراجعة
إيمان عبد الغني نجم



الطبعة الأولى ٢٠١٣ م

رقم إيداع ٢٠١٣/١٤٢٣٩

جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٦/٨/٢٠١٢

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة

إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه

٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة
جمهورية مصر العربية

تليفون: ٢٠٢ ٢٢٧٠٦٣٥٢ + فاكس: ٢٠٢ ٣٥٣٦٥٨٥٣ +

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org

الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

ديفو، دانيال.

روبينسون كروزو/ تأليف: دانيال ديفو.

تمك: ٥ ٢٣٧ ٧١٩ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القصص الإنجليزية

أ- العنوان

رسم الغلاف: إيمان إبراهيم، تصميم الغلاف: إيهاب سالم.

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية،
ويشمل ذلك التصوير الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مضغوطة أو استخدام أية وسيلة
نشر أخرى، بما في ذلك حفظ المعلومات واسترجاعها، دون إذن خطي من الناشر.

Arabic Language Translation Copyright © 2013 Hindawi

Foundation for Education and Culture.

Robinson Crusoe

All rights reserved.

المحتويات

٧	١- حَيَاةُ بَحَّارٍ
٩	٢- أُولَى رَحَلَاتِي
١١	٣- عَاصِفَةٌ عَاتِيَةٌ
١٥	٤- رَحَلَةٌ إِلَى أَفْرِيْقِيَا
١٧	٥- قَرَاصِنَةٌ!
١٩	٦- فُرْصَةُ الْهَرَبِ
٢٣	٧- الْأَحْرَارُ
٢٥	٨- السَّفِينَةُ الْإِنْجِلِيزِيَّةُ
٢٩	٩- حَيَاةُ الزَّرَاعَةِ
٣١	١٠- أَفْرِيْقِيَا مِنْ جَدِيدٍ
٣٣	١١- تَحَطُّمُ السَّفِينَةِ!
٣٧	١٢- جَزِيرَةُ الْيَأْسِ
٤١	١٣- مَلَأْتُ مَوْقَتٌ
٤٥	١٤- الشَّهْرُ الْأَوَّلُ
٤٩	١٥- الْحَيَاةُ عَلَى جَزِيرَةِ مَهْجُورَةٍ
٥٣	١٦- جَزِيرَةُ الْاِكْتِشَافِ
٥٥	١٧- رُوبِنْسُونُ الْمَزَارِعُ
٥٩	١٨- وَتَسْتَمِرُّ الْحَيَاةُ
٦١	١٩- قَارِبُ

- ٦٥ -٢٠- حَدِيثُ أُخْرَى
- ٦٩ -٢١- الْعَقْدُ الْأَوَّلُ
- ٧١ -٢٢- أَتَرَ قَدَمَ
- ٧٣ -٢٣- لَا دُخَانَ وَلَا نَارَ
- ٧٥ -٢٤- تَحَطَّمُ سَفِينَةٌ أُخْرَى
- ٧٩ -٢٥- روبسون يُقَابِلُ «جمعة»
- ٨١ -٢٦- الْحَيَاةُ مَعَ صَدِيقٍ
- ٨٥ -٢٧- هَلْ يُمَكِّنُنَا مُغَادِرَةُ الْجَزِيرَةِ؟
- ٨٧ -٢٨- التَّمَرُّدُ وَالْحُرِّيَّةُ
- ٨٩ -٢٩- الْأَخْذُ بِالذَّقَةِ
- ٩٣ -٣٠- الْعُودَةُ إِلَى الْوَطَنِ

الفصل الأول

حَيَاةُ بَحَّارٍ

اسْمِي رُوْبِنْسُونُ كَرْوُزُو. وُلِدْتُ عَامَ ١٦٣٢ بِبَلَدَةِ يُوْرُك، وَكُنْتُ الْإِبْنَ الْأَصْغَرَ مِنْ بَيْنِ أَبْنَاءِ ثَلَاثَةِ، وَكَانَ أَخِي الْأَكْبَرُ جُنْدِيًّا لَكِنَّهُ لَقِيَ حَتْفَهُ فِي مَعْرَكَةٍ ضِدَّ إِسْبَانِيَا، فِيمَا اخْتَفَى أَخِي الثَّانِي مِنْ حَيَاتِنَا حِينَمَا رَحَلَ يَوْمًا مَا وَلَمْ يَعُدْ قَطُّ. وَبِذَلِكَ فَقَدَ أَبَوَايَ اثْنَيْنِ مِنْ أَبْنَائِهِمَا وَلَمْ يَرْعَبَا فِي أَنْ يَفْقِدَا الثَّلَاثَ؛ لِذَا أَرَادَ أَبِي أَنْ أَظَلَّ فِي الْوَطَنِ وَأَنْ أَصْبَحَ مُحَامِيًّا، لَكِنِّي كُنْتُ أَعْشَقُ الْمُغَامِرَاتِ الرَّائِعَةَ وَالْبِلَادَ الْبَعِيدَةَ؛ فَقَدْتُ أَرَدْتُ أَنْ أَكُونَ بَحَّارًا!

فِي صَبَاحِ أَحَدِ الْأَيَّامِ، دَعَانِي أَبِي إِلَى عُرْفَةِ مَكْتَبِهِ، وَكَانَ رَجُلًا وَقُورًا عَابِسَ الْعَيْنَيْنِ وَحَادَ الذِّكَاةِ. تَحَدَّثَ إِلَيَّ لِمُدَّةٍ طَوِيلَةٍ عَنِ أَحْلَامِي، وَكَانَ أَبِي قَدْ عَمِلَ بِجِدِّ لِكَيْ يُوفِّرَ لِأُسْرَتِهِ حَيَاةً أَمْنَةً كَرِيمَةً. فَكَيْفَ لِي أَنْ أَتْرُكَ كُلَّ شَيْءٍ وَرَاءَ ظَهْرِي لِأَعِيشَ حَيَاةً فِي أَعَالِي الْبِحَارِ؟ لَمْ أَنْبَسْ بِنَبْتِ شَفَةِ دِفَاعًا عَنِ حُلْمِي؛ إِذْ كَانَ الْإِبْحَارُ عَمَلًا شَاقًّا وَمُخِيفًا، وَقَدْ عَدِيدٌ مِنَ الرِّجَالِ حَيَاتَهُمْ فِيهِ، وَفِيهِ أَيْضًا ضَلَّتْ قَوَارِبُ عَدِيدَةِ الطَّرِيقِ، وَتَرَكَ عَدِيدُونَ وَطَنَهُمْ وَلَمْ يَعُودُوا قَطُّ تَارَةً أُخْرَى، وَكَانَتْ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ الْمُثِيرَةَ تَشْحَدُ خَيَالِي. قُلْتُ لِأَبِي: «أَعْرِفُ أَنَّ الْأَمْرَ مُحْفُوفٌ بِالْمَخَاطِرِ يَا أَبِي، لَكِنِّي أَشْعُرُ أَنَّ ذَلِكَ هُوَ قَدْرِي، أَنَا أَسَفُ.»

بَدَأَ أَبِي فِي الْبُكَاءِ، وَشَعَرْتُ بِأَسَى بِالِخِ لَأَنَّيَ أَحْزَنْتُهُ؛ لِذَلِكَ قَرَّرْتُ أَنْ أَظَلَّ فِي دِيَارِي، فِي الْوَقْتِ الْحَالِي.

بَدَلْتُ قُصَارَى جُهْدِي كَيْ أَتَجَنَّبَ ذِكْرَ الْحِكَايَاتِ الَّتِي أَقْرَأُهَا أَوْ الرِّحَلَاتِ الرَّائِعَةَ الَّتِي أَسْمَعُ الرِّجَالَ يَتَحَدَّثُونَ عَنْهَا فِي الطَّرِيقَاتِ. فَعَانَيْتُ فِي صَمْتٍ وَحَاوَلْتُ أَنْ أَكُونَ ابْنًا

يَفْحَرُ بِهِ أَبِي، لَكِنَّ الْأَمْرَ لَمْ يَكُنْ سَهْلًا. فَقَدْ كَانَ قَلْبِي يَتَوَقَّ تَوْفًا مُوجِعًا لِرَائِحَةِ الْبَحْرِ
مَنْ عَلَى سَطْحِ سَفِينَةٍ كَبِيرَةٍ. وَتَأَقَّتْ قَدَمَايَ لِلسَّيْرِ عَلَى شَطْآنِ الْبِلَادِ الْبَعِيدَةِ، وَلَمْ أَرْعَبْ فِي
التَّقَاعِيسِ وَاهْدَارِ شَبَابِي سُدَى؛ فَكُنْتُ أَعْشَقُ الْمُغَامَرَةَ، وَلَمْ يَكُنْ أَيُّ شَيْءٍ غَيْرَهَا لِيُشْعِرَنِي
بِالسَّعَادَةِ.

مَرَّتْ بِضَعَةِ أَسَابِيعَ قَصِيرَةٍ، صرْتُ فِيهَا أَكْثَرَ إِصْرَارًا عَلَى أَنْ أَصْبِحَ بَحَّارًا، وَأَرَدْتُ
أَنْ أَرْحَلَ فِي ظِلْمَةِ اللَّيْلِ وَأَرْكَبَ أَوَّلَ سَفِينَةٍ تُبْحِرُ فَوْقَ صَفْحَةِ مِيَاهِ الْأَبْحَرِ الْبَعِيدَةِ، لَكِنِّي
كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّ ذَلِكَ سَيُزْعَجُ وَالِدِي، وَبَدَلًا مِنَ الْإِقْدَامِ عَلَى هَذِهِ الْخُطْوَةِ، حَاوَلْتُ التَّحَدُّثَ مَعَ
أُمِّي.

قُلْتُ لَهَا: «لَقَدْ حَسَمْتُ أَمْرِي يَا أُمِّي، فَمَا تَمَنَيْتُ شَيْئًا فِي حَيَاتِي سِوَى أَنْ أَصْبِحَ
بَحَّارًا، وَأَرْجُو أَنْ تَسْمَحَا لِي أَنْتِ وَأَبِي بِالْإِبْحَارِ.»

وَاسْتَطْرَدْتُ حَدِيثِي مَعَهَا قَائِلًا: «إِنِّي فِي الثَّامِنَةِ عَشْرَةَ الْآنَ مِنْ عُمْرِي، فَإِذَا أَجَبْتُمَانِي
عَلَى أَنْ أَصْبِحَ مُحَامِيًا أَوْ أَجَبْتُمَانِي عَلَى تَعَلُّمِ مِهْنَةٍ أُخْرَى، فَسَأَلُودُ بِالْفِرَارِ. لَكِنْ إِذَا
تَرَكَتُمَانِي أَذْهَبُ فِي رِحْلَةٍ وَاحِدَةٍ، فَسَأَعُودُ وَأَفْعَلُ كُلَّ مَا يَطْلُبُهُ أَبِي.»

اسْتَشَاطَتْ أُمِّي غَضَبًا وَرَفَضَتْ أَنْ تَطْلُبَ مِنْ أَبِي أَيُّ شَيْءٍ؛ وَرَفَضَ كِلَاهُمَا الْأَمْرَ
رَفْضًا بَاتًا، وَكَانَتْ تِلْكَ نِهَآيَةَ النِّقَاشِ.

حَاوَلَ أَبُوَايَ بِشَتَّى الطَّرِيقِ إِثْنَائِي عَنْ قَرَارِ الرَّحِيلِ؛ فَوَعَدَانِي أَنَّ بِإِمْكَانِي الْإِلْتِحَاقَ
بِأَيِّ جَامِعَةٍ أُرِيدُهَا، وَأَخْبَرَانِي أَنَّ بِمَقْدُورِي التَّفَكُّيرَ فِي أَيِّ مِهْنَةٍ تَحْلُو لِي. لَكِنِّي رَفَضْتُ
الْعُرُوضَ كُلَّهَا؛ إِذْ كَانَ الْإِبْحَارُ هُوَ حُلْمِي الْوَحِيدَ، وَلَمْ أَكُنْ مُسْتَعِدًّا لِلْقَبُولِ بِأَيِّ بَدِيلٍ آخَرَ.

الفصل الثاني

أولى رحلاتي

بَعْدَ عَامٍ تَقْرِيْبًا، أُرْسَلَنِي وَالِدِي إِلَى بَلَدَةٍ هَالٍ لِأَدَاءِ بَعْضِ الْمَهَامِّ لَهُ. وَمَا إِنْ وَصَلْتُ إِلَى هُنَاكَ حَتَّى التَّقَيْتُ صُدْفَةً بِجُونٍ - وَهُوَ صَدِيقُ دِرَاسَةِ قَدِيمٍ - وَكَانَ وَالِدُهُ قُبْطَانٌ سَفِينَةٍ مُبْجَرَةٍ إِلَى لَنْدَنَ.

قُلْتُ لَهُ: «إِنَّكَ لَمَحْظُوطٌ! فَكُلُّ مَا أَرَدْتُهُ فِي حَيَاتِي هُوَ أَنْ أُصِيْحَ بَحَارًا، لَكِنَّ وَالِدِي لَنْ يَسْمَحَا لِي بِالِإِبْحَارِ.»

- «سِنَّكَ كَبِيرٌ بِمَا يَكْفِي كَيْ تَتَّخِذَ قَرَارَاتِكَ بِنَفْسِكَ يَا رُوْبِنْسُونُ، فَلِمَ تَهْتَمُّ بِرَأْيِهِمْ؟ سَأَقْتَرِحُ عَلَيْكَ فِي الْحَالِ مَكَانًا عَلَى سَفِينَةِ وَالِدِي، فَلِمَ لَا تَأْتِي مَعَنَا وَحَسْبُ؟»

جَالَ فِي خَاطِرِي حِينَهَا: «أَجَلٌ! هَا هِيَ فُرْصَتِي.»

- «حَسَنًا، أَنَا مُوَاْفِقٌ يَا جُونُ! شُكْرًا لَكَ، سَيُسْعِدُنِي الذَّهَابُ مَعَكَ!»

سَيِّئًا لِمُ وَالِدِي، لَكِنَّ لَا يُمَكِّنُ أَنْ أَقْضِي حَيَاتِي مُحَاوِلًا إِسْعَادَهُمَا. أَخِيرًا سَأُصِيْحُ

بَحَارًا!!

عَادَرْنَا فِي سَاعَةِ مُبَكَّرَةٍ مِنَ الصَّبَاحِ، وَلَمْ تَكِدِ الشَّمْسُ تُشْرِقُ حَتَّى بَدَأْنَا رِحْلَتَنَا.

وَتَأَرَّجَحَتِ السَّفِينَةُ فَوْقَ الْأَمْوَاجِ إِلَى أَعْلَى وَإِلَى أَسْفَلَ حَتَّى أُصِْبْتُ بِدَوَارِ الْبَحْرِ. وَإِلَى جَانِبِ

مِعْدَتِي الْمُضْطَرِبَةِ، تَمَلَّكَنِي الْخَوْفُ لِعُلُوِّ الْأَمْوَاجِ وَتَكَسَّرَهَا عَلَى جَانِبِي السَّفِينَةِ، وَفِيضِهَا

أَحْيَانًا عَلَى السَّطْحِ.

اسْتَلْقَيْتُ عَلَى الْأَرْجُوحةِ الشَّبَكِيَّةِ فِي حُجْرَتِي الصَّغِيرَةِ وَشَعَرْتُ بِالتَّعَاسَةِ، فَبَكَيْتُ وَبَكَيْتُ، وَشَعَرْتُ بِالدَّنْبِ لِرَحِيلِي عَنْ أُمِّي وَأَبِي عَلَى النَّحْوِ الَّذِي فَعَلْتُ، فَقَدْ كَانَا أَبَوَيْنِ صَالِحَيْنِ وَعَطُوفَيْنِ وَأَرَادَا لِي الْخَيْرَ، كُلَّ الْخَيْرِ، لَكِنِّي خَبَيْتُ أَمَالَهُمَا وَكَانَ هَذَا هُوَ عِقَابِي. اَزْدَادَتِ الْعَاصِفَةُ سُوءًا، وَازْدَادَتِ الْأَمْوَاجُ اِرْتِفَاعًا، وَتَوَقَّعْتُ أَنْ تَبْلَعَنَا كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْ هَذِهِ الْأَمْوَاجِ بِالْكَامِلِ. وَفِي كُلِّ مَرَّةٍ تَعَوَّضُ فِيهَا السَّفِينَةُ أَسْفَلَ مَوْجَةٍ أُخْرَى هَائِلَةً، كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّهَا لَنْ تَرْتَفِعَ أَبَدًا مَرَّةً أُخْرَى. وَقُلْتُ لِنَفْسِي فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ: «إِذَا نَجَوْتُ بِأَيِّ حَالٍ، أَقْسِمُ أَنِّي سَأَذْهَبُ إِلَى بَلَدْتِي لِأُمِّي وَأَبِي، وَأَنْ أَكُونَ إِنْسَانًا صَالِحًا، وَسَوْفَ أَكُونُ ابْنًا بَارًا بِهِمَا!»

بِحُلُولِ صَبَاحِ الْيَوْمِ التَّالِيِ، كَانَ الْبَحْرُ قَدْ هَدَأَ، وَبَدَأَ أَمْلَسَ كَالزُّجَاجِ، وَلَمْ يَعْذُ جَسَدِي يَشْعُرُ بِدَوَارِ الْبَحْرِ، وَاسْتَقْبَلْتَنِي الشَّمْسُ بِيَوْمٍ مُشْرِقٍ وَمُمْتِعٍ. كَمْ هُوَ الْأَمْرُ مُخْتَلِفًا! صَعِدْتُ إِلَى ظَهْرِ السَّفِينَةِ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ مُنْذُ مُغَادَرَتِنَا هَالًا، وَرَأَيْتُ جُونَ يَتَأَمَّلُ الْأَفْقَ، وَيَقُولُ: «تَبْدُو أَفْضَلَ حَالًا! لَا أَصَدِّقُ أَنَّكَ كُنْتَ مَدْعُورًا لِهَذَا الْحَدِّ مِنْ هَبَّةِ رِيَا حِ بَسِيطَةٍ!»

قُلْتُ مُسْتَنْكَرًا: «هَبَّةُ رِيَا حِ بَسِيطَةٍ! يَا لَهَا مِنْ عَاصِفَةٍ مُرِيعَةٍ!» فَصَحِكَ جُونٌ وَقَالَ: «إِنَّكَ لَمْ تَرَ شَيْئًا بَعْدُ. فَقَطْ اَنْتَظِرْ حَتَّى تَكُونَ فِي عَرْضِ الْبَحْرِ، وَحِينَهَا سَتَرَى كَيْفَ تَكُونُ الْعَاصِفَةُ!» ضَحِكْتُ أَنَا الْأَحْرُ وَقُلْتُ: «حَسَنًا، فَقَدْ تَعَامَلْتُ مَعَهَا بِأَيِّ حَالٍ، خَطِيرَةٌ كَانَتْ أَمْ غَيْرَ خَطِيرَةٍ، فَهَذِهِ أَوَّلُ عَاصِفَةٍ لِي فِي الْبَحْرِ.»

قَالَ لِي بِمَرَحٍ: «تَعَالَ يَا رُوبِنْسُونُ، هَيَّا بِنَا لِنَشْرَبَ بَعْضَ الْبِنَشِ!» يَا لِلْمُنْتَعَةِ الَّتِي حَظَيْتُ بِهَا هَذِهِ اللَّيْلَةَ! ذَهَبَتْ عَنِّي جَمِيعُ مَخَاوِفِي فِي كَأْسٍ مِنَ الْبِنَشِ، وَوَقَّتِ رَائِحَ صَاحِبٍ. وَسُرْعَانَ مَا رَاحَ وَعَدُ اللَّيْلَةُ السَّابِقَةَ بِالْعُودَةِ لِبَلَدْتِي طَيِّ النَّسِيَانِ، فَمَا عَدْتُ خَائِفًا مِنْ أَنْ يَبْتَلِعَنِي الْبَحْرُ كُلِّيَّةً، وَلَمْ أَرْغَبْ فِي الْعُودَةِ لِإِيَارِي؛ لَقَدْ خُلِقْتُ لِحَيَاةِ الْبِحَارِ.

الفصل الثالث

عاصفة عاتية

في يومنا السادس في البحر، اضطربنا أن نرسو في يارماوت بسبب الرياح الشديدة التي تهب في الاتجاه المعاكس. وكان هناك سفن عديدة منتظرة بالميناء. وبعد قرابة أسبوع، هبت الرياح أخيراً في الاتجاه المواتي سلنا، إلا أنها كانت شديدة للغاية، واعتقد والد جون — القبطان — أنه لا بأس في أن نبحر، لكن الرجال لم يقنعوا برأيه.

شرع العمال جميعهم في إنزال الأشرعة العالية من الصواري العليا، وبدل أفراد الطاقم قصارى جهدهم ليتأكدوا من تأمين الحمولة والمعدات ورصها على سطح السفينة، فلم نرد أن يطير أي شيء بفعل الرياح. وتأكد أفراد الطاقم أن السفينة ستسير بسلاسة قدر المستطاع فوق الأمواج.

بدأنا رحلتنا باكراً ذلك الصباح، وبحلول الظهر انقلب البحر ضدنا. كانت عاصفة عظيمة ومخيفة. رأيت الرعب والذهول في أعين أفراد الطاقم، وظل والد جون يروح ويحيي من وإلى حجرته، وسمعته يغمغم قائلاً: «سنضيع كلنا».

لا أستطيع أن أصف مدى فرعي؛ تمايلت السفينة تمايلاً شديداً وهي تجري بنا في موج كالجبال. وكل بضعة دقائق ترتطم موجة جديدة بالسفينة، ولطمت الأمواج العنيفة سفناً أخرى عديدة من حولنا.

كنت أرقب البحارة الآخرين وهم يعملون بجِدِّ على إنزال صواريهم كي لا تجرفها الرياح، فإذا أنزلت الصواري ساعد ذلك في منع الأمواج من دفع السفينة إلى تحت الماء.

وَفِي الْبِدَايَةِ، تَرَدَّدَ الْقُبْطَانُ فِي فِعْلِ ذَلِكَ لِأَنَّ حَمُولَتَنَا مِنَ الْبَضَائِعِ كَانَتْ ثَقِيلَةً، وَلَمْ يَرِدْ أَنْ يَنْعِدِمَ تَوَازُنُنَا. بَعْدَ ذَلِكَ، ازْدَادَ الْبَحْرُ اضْطِرَابًا وَازْدَادَتِ الْعَاصِفَةُ عُنُوتًا. وَسُرْعَانَ مَا افْتَتَحَ الْقُبْطَانُ، فَصَاحَ: «نَكْسُوا الْأَشْرِعَةَ! أَنْزِلُوهَا مَعَ الصَّوَارِي! بِسُرْعَةٍ يَا شَبَابُ، وَإِلَّا سَنْضِيعُ كُلُّنَا!» وَدَعَوْنَا، لَعَلَّ مَا فَعَلْنَاهُ يَكُونُ جَدِيرًا بِإِنْقَاذِ أَرْوَاحِنَا. وَكَانَتْ سُفُنُ أُخْرَى عَدِيدَةً لَا زَالَتْ تَوَاجِهَ الصَّعَابَ فِي الْعَاصِفَةِ، بَيْنَمَا غَرَقَتْ بِالْفِعْلِ إِحْدَى السُّفُنِ الَّتِي كَانَتْ تَتَقَدَّمُنَا حِينَهَا.

كَانَ الْأَسْوَأُ فِي الْإِنْتِظَارِنَا. تَجَمَّعَ الرَّجَالُ بِالْقُرْبِ مِنِّي فِي الْحُجْرَةِ قَائِلِينَ إِنَّهُمْ لَمْ يَرَوْا عَاصِفَةً مِثْلَ هَذِهِ قَطُّ. فَدَعَوُوا اللَّهَ أَنْ يُنَجِّيَهُمْ، وَرَجَّوهُ أَنْ يُنْقِذَهُمْ. لَكِنَّ الْعَاصِفَةَ لَمْ تَرْفُقْ بِهِمْ، حَتَّى الْقُبْطَانُ ظَنَّ أَنَّ الْمَكَانَ الْوَحِيدَ الَّذِي قَدْ تَرَسَّوْا فِيهِ هُوَ قَاعَ الْبَحْرِ.

وَفِي اللَّحْظَةِ الَّتِي اعْتَقَدْنَا فِيهَا أَنَّ الْأُمُورَ وَصَلَتْ لِأَسْوَأِ حُدٍّ، جَاءَ رَجُلٌ مُهْزُولًا مِنْ أَسْفَلٍ وَصَاحَ أَنْ سَفِينَتُنَا قَدْ أَصَابَهَا حَرْقٌ، وَأَنَّ اِرْتِفَاعَ الْمِيَاهِ فِي مَخْرَنِ السَّفِينَةِ بَلَغَ أَرْبَعَ أَقْدَامٍ! اسْتَدْعَى الْعَمَالُ جَمِيعُهُمْ إِلَى أَسْفَلِ سَطْحِ السَّفِينَةِ لِتَفْرِغِ الْمَاءِ، فَانزَلْتُ إِلَى أَسْفَلٍ وَبَدَلْتُ قَصَارَى جُهْدِي.

بَدَتْ الْمِيَاهُ كَأَنَّهَا هِيَ الطَّرْفُ الْفَائِزُ فِي الْمَعْرَكَةِ، فَمَحَ أَنَّ الْعَاصِفَةَ هَدَأَتْ قَلِيلًا، إِلَّا أَنَّ الْمَخْرَنَ ظَلَّ مُمْتَلِئًا بِالْمِيَاهِ. وَأَدْرَكَ الْقُبْطَانُ أَنَّ لَنْ نَبْلُغَ الْمِيَاءَ التَّالِيَّ أَبَدًا، فَأَمَرَ أَفْرَادَ الطَّاقَمِ بِالْبَدءِ فِي إِطْلَاقِ مَدَافِعِنَا لِطَلَبِ النُّجْدَةِ.

سَمِعْتُ أَحَدَ الْبَحَّارَةِ يَصِيحُ: «انْتَظِرُوا! هَا قَدْ أَتَى قَارِبٌ إِنْقَاذًا!» وَلَكِنَّ الْأَمْوَاجَ جَعَلَتْ وَصُولَ الْقَارِبِ إِلَيْنَا شَبَهَ مُسْتَحِيلٍ. وَكَانَتْ أَمَامَنَا فُرْصَةٌ وَاحِدَةٌ: أَنْ نَقْذِفَ إِلَيْهِمْ بِحَبْلِ، حَتَّى نَظَلَّ عَلَى قَدْرِ مِنَ الثَّبَاتِ يُتَبَّحُ الْإِنْتِقَالَ إِلَيْهِمْ. فَرَأَقْبْنَا جَمِيعًا نَائِبَ الْقُبْطَانِ وَهُوَ يُنْقِي الْحَبْلَ بِحَرْصٍ بِاتِّجَاهِ الْبَحْرِ الْمُمْتَدِّ، وَيَا لَهُ مِنْ حَظٍّ! فَقَدْ أَمْسَكُوا بِالْحَبْلِ! وَتَدَافَعْنَا نَتْرَاحَمُ بِالْمَنَاكِبِ لِنَعْلُوَ إِلَى سَطْحِ الْقَارِبِ.

مَعَ كُلِّ مَرَّةٍ يَصِلُ فِيهَا قَارِبُ الْإِنْقَاذِ الصَّغِيرِ إِلَى ذُرُوءِ مَوْجَةٍ، كُنْتُ أَخْشَى عَلَى حَيَاتِي؛ إِذْ كَانَتْ الْأَمْوَاجُ عَالِيَةً جِدًّا! وَكُنَّا نَحْنُ صِغَارَ الْحَجْمِ جِدًّا! وَاسْتَمَرَ الرَّجَالُ الشُّجْعَانُ فِي التَّجْدِيفِ، فَقَدْ حَمَلُوا أَرْوَاحَهُمْ عَلَى أَكْفِهِمْ لِمُسَاعَدَتِنَا، وَكَانُوا عَازِمِينَ عَلَى إِنْقَاذِنَا.

وَبَعْدَ خَمْسِ عَشْرَةِ دَقِيقَةٍ فَقَطُّ مِنْ إِنْقَاذِنَا، شَاهَدْنَا سَفِينَتَنَا — وَالرُّعْبُ مَلءُ قُلُوبِنَا — وَهِيَ تَتَقَلَّبُ وَتَعْوِصُ فِي الْعُمُقِ. وَبَعْدَمَا ظَنَنْتُ أَنِّي سَأَنْتَظِرُ دَهْرًا كَامِلًا حَتَّى أَرَى

الشَّاطِئِ، تَمَكَّنْتَ أَخِيرًا مِنْ رُؤْيَيْهِ، حَيْثُ يَعُدُّو رِجَالَ فِي كُلِّ اتِّجَاهٍ مُنْتَظِرِينَ وَصُولَنَا، وَمَحَاوِلِينَ الْمُسَاعَدَةَ إِنْ أَمَكَّنَهُمْ ذَلِكَ.

رَسُونَا بِأَمَانٍ! وَانْطَلَقْتُ صَيْحَاتُ الْمَرْحِ وَالتَّهْلِيلِ لِحَظَّةِ اضْطِدَامِ النِّقَارِ بِالشَّاطِئِ الرَّمِيّ. وَالْقَى رِجَالَ حَوْلَنَا مِنْ جَمِيعِ الْجِهَاتِ بِالْبَطَاطِينِ عَلَيْنَا كَيْ لَا نَشْعُرَ بِالْبُرْدِ. وَشَكَرَ قُبْطَانُنَا الرَّجَالَ الشُّجْعَانَ الَّذِينَ أَنْقَدُونَا شُكْرًا حَارًّا.

سَارَ طَاقَمُنَا كُلُّهُ بِبُطْءٍ عَائِدًا إِلَى يَارِمَاوِثَ، وَرُوْحُنَا الْمُعْنَوِيَّةُ فِي الْحَضِيضِ لِأَنَّهَا فَقَدْنَا سَفِينَتَنَا. وَلَكِنَّ طَيْبَةَ النَّاسِ فِي يَارِمَاوِثَ كَانَتْ لَهَا دَوْرٌ كَبِيرٌ فِي التَّخْفِيفِ عَنَّا، فَقَدَّ دَبَّرَ الْقَاضِي الْمَحَلِّيُّ سَرِيرًا دَافِعًا لِكُلِّ فَرْدٍ مَنَّا لِقَضَاءِ اللَّيْلِ، وَكَانَ الْعَدِيدُ مِنْ أَصْحَابِ الْمَتَاجِرِ طَيِّبِينَ، حَتَّى إِنَّهُمْ سَاعَدُونَا فِي الْعُودَةِ إِلَى لُنْدَنْ أَوْ هَال.

رَاوَعْنِي شَيْءٌ مِنَ الْحَيْنِ لِلْعُودَةِ إِلَى هَال، وَمِنْ هُنَاكَ كَانَتْ يُمَكِّنُنِي السَّفَرُ إِلَى يُورِكْ لِأَرَى وَالِدِي، لَكِنَّ عَاطِفَتِي الْكُبْرَى كَانَتْ لَا تَزَالُ مُنْجَرِفَةً نَحْوَ حَوْضِ مُعَامَرَةٍ، وَلَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَحْسِمَ أَمْرِي: هَلْ يَنْبَغِي لِي الْبَقَاءُ فِي يَارِمَاوِثَ وَالْعُثُورُ عَلَى سَفِينَةٍ جَدِيدَةٍ؟ أَمْ عَلَيَّ الْعُودَةُ إِلَى الْوَطَنِ؟

فِي يَوْمِي الثَّلَاثِ فِي يَارِمَاوِثَ، التَّقَيْتُ صَدِيقِي جُونِ صُدْفَةً وَهُوَ يَسِيرُ مَعَ وَالِدِهِ، وَبَدَأَ عَلَيَّ كِلَيْهِمَا الضَّيْقُ وَالِانْزِعَاجُ.

قَالَ جُونُ: «أَبِي، هَذَا هُوَ رُوبِنْسُونُ. أَتَذْكُرُ أَنَّي أَخْبَرْتُكَ كَيْفَ صَاحَبْنَا لِيَعِيشَ حَيَاةَ الْبَحَّارِ. إِنَّهُ يَرْعَبُ فِي أَنْ يُمْضِيَ حَيَاتَهُ فِي الْبَحْرِ.»

نَظَرَ إِلَيَّ الْقُبْطَانُ بِتَأَمُّلٍ وَقَالَ: «رُوبِنْسُونُ، اعْتَبِرْ هَذِهِ إِشَارَةً، وَعُدْ إِلَى بَلَدِكَ، فَحَيَاةَ الْبَحْرِ لَيْسَتْ لَكَ.»

سَأَلْتُهُ: «لَكِنْ يَا سَيِّدِي، هَلْ عَيَّرْتَ فِكْرَكَ هَذِهِ الْعَاصِفَةَ بِالْمِثْلِ؟ هَلْ سَتَتَوَقَّفُ عَنِ الْإِبْحَارِ بِسَبَبِهَا؟»

أَجَابَ الْقُبْطَانُ: «إِنَّ حَيَاتِي مُخْتَلِفَةٌ؛ هَذِهِ هِيَ مِهْنَتِي، وَمِنْ وَاجِبِي أَنْ أَعْمَلَ بَحَّارًا. أَمَّا أَنْتَ، فَمَا حَدَثَ كَانَ تَجْرِبَةً أَوْ اخْتِبَارًا، وَفِي الْحَالَتَيْنِ لَمْ يُحَالِفْكَ التَّوْفِيقُ. فَلَوْ أَصْرَرْتَ عَلَى حَيَاةِ الْبَحْرِ، فَإِنِّي أَحْشَى عَلَيْكَ مَا قَدْ يَحْدُثُ لَكَ.»

تَحَدَّثَ الْقُبْطَانُ بِجِدِّيَّةٍ عَنِ الْحَظِّ الطَّيِّبِ، وَأَخْبَرَنِي أَنَّي أُدَاعِبُ الْمَوْتَ بِاسْتِمْرَارِي فِي السَّيْرِ وَرَاءَ أَحْلَامِي. وَأَنْجَزَفُ بِكَلَامِهِ بَعِيدًا حَتَّى قَالَ إِنَّ كُلَّ ذَلِكَ النَّحْسِ كَانَ فِي الْحَقِيقَةِ مِنْ فِعْلِي!

وَكَانَتْ آخِرُ كَلِمَاتِ قَالَهَا لِي: «روبسون، يُمَكِّنْكَ أَنْ تَتَأَكَّدَ مِنْ شَيْءٍ وَاحِدٍ؛ إِذَا تَجَاهَلْتَ رَعَبَاتِ وَالِدِكَ، فَسَوْفَ تَلْقَى حَيَبَةَ الْأَمَلِ وَالنَّكَبَاتِ.»

أَوْمَأْتُ بِرَأْسِي وَسِرْتُ مُبْتَعِدًا. وَلَمْ أَرِ جُونَ أَوْ وَالِدَهُ قَطُّ بَعْدَ هَذَا الْيَوْمِ. وَبَيْنَمَا كُنْتُ أَسِيرُ، فَكَّرْتُ مَلِيًّا فِيمَا قَالَهُ: فَمَاذَا إِنْ كَانَتْ الْعَاصِفَةُ إِشَارَةً؟ مَاذَا لَوْ كَانَتْ تَعْنِي أَنِّي لَا يَنْبَغِي لِي مُطْلَقًا أَنْ أَصِيرَ بَحَارًا؟

وَقُلْتُ لِنَفْسِي: «رُبَّمَا يَنْبَغِي لِي الْإِكْتِفَاءُ بِإِحْصَاءِ النِّعَمِ الَّتِي أَمْلِكُهَا وَالْعَوْدَةُ لِبَلَدِي. فَمَاذَا لَوْ كَانَ عَلَيَّ صَوَابٌ وَتَلَاخُفُنِي لَعْنَةٌ؟» لِكِنِّي لَمْ أَسْتَطِعْ الْعَوْدَةَ لِلْبَيْتِ مُجْرَجًا أَذْيَالَ الْفَشْلِ، فَلَنْ يَفْخَرَ بِي أَبِي أَبَدًا. لِذَا ابْتَلَعْتُ شُكُوكِي وَسَافَرْتُ إِلَى لَنْدَنَ.

الفصل الرابع

رِحْلَةٌ إِلَى أَفْرِيقِيَا

تَعَانَى حَظِي الْعَائِرُ فِي لَنْدَنَ. التَّقِيْتُ بِصُحْبَةِ حَسَنَةَ وَقَابَلْتُ الْقُبْطَانَ كُولِبِرَ، الَّذِي كَانَ قَدْ عَادَ لِنَوِّهِ مِنْ أَفْرِيقِيَا. وَكَانَتْ رِحْلَتُهُ الْبَحْرِيَّةُ إِلَى أَفْرِيقِيَا نَاجِحَةً إِلَى حَدِّ كَبِيرٍ حَتَّى إِنَّهُ كَانَ عَلَى وَشِكِّ الْخُرُوجِ فِي رِحْلَةٍ أُخْرَى. تَقَاسَمْنَا الْعَدِيدَ مِنَ الْوَجَبَاتِ وَدَارَ بَيْنَنَا عَدَدٌ مِنَ الْأَحَادِيثِ الرَّائِعَةِ. وَعِنْدَمَا عَلِمَ الْقُبْطَانُ كُولِبِرَ بِرَغْبَتِي فِي رُؤْيَةِ الْعَالَمِ، قَرَّرَ أَنْ يَصْحَبَنِي مَعَهُ.

كَانَ الْقُبْطَانُ كُولِبِرَ رَجُلًا نَزِيهًا وَعَادِلًا؛ فَلَمْ يَكْتَفِ بِاسْتِنْجَارِي فِي رِحْلَتِهِ الْبَحْرِيَّةِ، بَلْ شَمَلَنِي بِرِعَايَتِهِ؛ فَسَاعَدَنِي فِي شِرَاءِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي يُمَكِّنُنِي الْمُنَاجَرَةَ بِهَا لِأَتَمَكَّنَ مِنْ جَنِي رِيحٍ صَغِيرٍ. وَبَيْنَمَا كُنَّا مُبْحِرِينَ، عَلَّمَنِي أَيْضًا الْحِسَابَ وَالْمِلَاحَةَ وَالْعَدِيدَ مِنَ الْأَشْيَاءِ الْأُخْرَى الَّتِي يَحْتَاجُ الْبَحَّارَةُ إِلَى تَعَلُّمِهَا، وَأَسَدَى لِي نَصَائِحَ رَائِعَةً.

تَسَبَّبَتِ الْحَرَارَةُ الْمُرْتَفِعَةُ عَلَى الْأَرْضِ شَدِيدَةَ الْقُرْبِ مِنْ حَظِّ الْإِسْتِوَاءِ فِي إِصَابَتِي بِحُمَى شَدِيدَةٍ. فَفِي مُعْظَمِ الْوَقْتِ الَّذِي قَضَيْنَاهُ فِي الْجَنُوبِ، كُنْتُ مَرِيضًا. وَبَعْدَ مَا يُقَارِبُ الْعَامَ فِي الْبَحْرِ، عُدْنَا إِلَى لَنْدَنَ. وَلَمْ تَكُنِ الْعَوْدَةُ سَالِمًا الشَّيْءَ الطَّيِّبَ الْوَجِيدَ الَّذِي خَرَجْتُ بِهِ مِنْ رِحْلَتِي، بَلْ عَرَفْتُ أَنَّي تَاجِرٌ مَاهِرٌ، وَجَنَيْتُ رِبْحًا وَفِيرًا مِنْ بَضَائِعِي.

وَبِالرَّغْمِ مِنْ تَحَسُّنِ حَالَتِي الصَّحِيَّةِ لَدَى عَوْدَتِنَا لِلْأَجْوَاءِ الْأَكْثَرِ بُرُودَةً، فَقَدْ أُصِيبَ الْقُبْطَانُ كُولِبِرَ بِالْحُمَى نَفْسَهَا الَّتِي أَصَابَتْنِي لَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ مَحْظُوظًا بِمَا يَكْفِي؛ إِذْ تُوِّفِّيَ بَعْدَ عَوْدَتِنَا بِقَلِيلٍ. وَافْتَقَدْتُهُ أَيَّمَا افْتِقَادٍ، فَقَدْ كَانَ صَدِيقًا وَفِيًّا وَمُعَلِّمًا مُخْلِصًا.

أَقْنَعْنِي نَجَاحِي كَتَّاجِرٍ بَأَنَّنِي أَصَبْتُ الْإِخْتِيَارَ، فَتَجَاهَلْتُ نَصِيحَةَ وَالِدِ جُونِ، وَحَاوَلْتُ
أَلَّا يَعْتَصِرَنِي الْحُزْنُ عَلَى الْقُبْطَانِ كُولِبِر. وَعِنْدَمَا عَرَضَ عَلَيَّ نَائِبُ الْقُبْطَانِ مَكَانًا عَلَى
سَفِينَةٍ تُوْشِكُ عَلَى الْإِبْحَارِ إِلَى أَفْرِيقِيَا، انْتَهَزْتُ الْفُرْصَةَ لِلذَّهَابِ مَعَ الْمُبْحَرِينَ، وَتَرَكْتُ
مُعْظَمَ ثَرَوَاتِي حَدِيثَةَ الْعَهْدِ مَعَ أَرْمَلَةِ كُولِبِرٍ لِحِفْظِهَا، وَأَنْطَلَقْتُ فِي مُغَامَرَةٍ أُخْرَى.

الفصل الخامس

قَرَاصِنَةٌ!

قَدَّرَ مَا تَغَيَّرَ حَظِّي لِأَفْضَلِ عِنْدَمَا وَصَلْتُ إِلَى لَنْدَنْ، أَصْبَحَ الْعَكْسُ بِالْعَكْسِ لَاحِقًا؛
فَسُرْعَانَ مَا أَصْبَحَتْ رِحْلَتِي الْبَحْرِيَّةُ الثَّانِيَّةُ إِلَى أَفْرِيْقِيَا أَسْوَأَ رِحْلَةٍ لِي حَتَّى حِينِهِ.
وَسُرْعَانَ مَا عَلِمْتُ أَنَّ هُنَاكَ مَا هُوَ أَسْوَأُ بِكَثِيرٍ مِنْ هَبَّةِ رِيحٍ وَالْإِنْقَاذِ فِي اللَّحْظَةِ الْآخِرَةِ!
فَبَيْنَمَا شَقَّتْ سَفِينَتُنَا طَرِيقَهَا إِلَى جُزْرِ الْكِنَارِي، بَاعْتَنَتْنَا سَفِينَةٌ قَرَاصِنَةٌ.

طَارَدُونَا لِسَاعَاتٍ مُنْطَلِقِينَ بِأَقْصَى سُرْعَةٍ، وَعِنْدَمَا لَحِقُوا بِنَا، كَانَتْ فُرْصَتُنَا الْوَحِيدَةُ
لِلْبَقَاءِ هِيَ الْقِتَالُ، فَجَهَّزْنَا بِنَادِقِنَا لِلْمَعْرَكَةِ. وَاقْتَرَبَتْ سَفِينَةُ الْقَرَاصِنَةِ مِنْ مُؤَخَّرَةِ
سَفِينَتِنَا. اتَّخَذْنَا الْمُخَاطَرَةَ وَأَطْلَقْنَا النَّارَ مِنْ بِنَادِقِنَا كُلِّهَا مُبَاشَرَةً عَلَى سَفِينَةِ الْمُحْتَالِينَ،
وَرَدُّوا عَلَى نِيرَانِنَا بِمَدَافِعِهِمْ الْكَبِيرَةِ.

وَبَدَأَ جَمِيعُ الْقَرَاصِنَةِ فِي إِطْلَاقِ النَّارِ مِنْ بِنَادِقِهِمْ بِدَوْرِهِمْ، لَكِنَّ لَمْ تُصَبَّ أَحَدًا مِنْ
رِجَالِنَا أَيُّ مِنْ طَلَقَاتِهِمْ!

لَمْ يَدُمْ هَذَا النَّصْرُ كَثِيرًا، وَخِلَالَ دَقَائِقَ كَانَ مَا يَفْرُبُ مِنَ السَّتِينِ قَرَصَانًا عَلَى سَطْحِ
سَفِينَتِنَا. قَطَعُوا جِبَالِنَا بِسُيُوفِهِمْ، ثُمَّ مَزَّقُوا أَشْرَعَتَنَا، لَكِنَّا أَجَبْنَاهُمْ عَلَى التَّقَهُّقْرِ قَدْرَ
اسْتِطَاعَتِنَا مُسْتَحْدِمِينَ بِنَادِقِنَا وَسُيُوفِنَا (وَأَبْعَدْنَاهُمْ عَنْ سَطْحِ سَفِينَتِنَا مَرَّتَيْنِ!) لَكِنَّ
النَّصْرَ لَمْ يَبْدُ حَلِيفًا لَنَا، وَاسْتَسْلَمْنَا قَبْلَ أَنْ تَزْهُقَ أَيُّ نَفْسٍ.

أَخَذْنَا الْقَرَاصِنَةَ عَلَى سَفِينَتِهِمْ أَسْرَى، وَأَبْحَرْنَا إِلَى مِينَاءِ سِلا، عَلَى السَّاحِلِ الشَّمَالِيِّ
لِأَفْرِيْقِيَا. وَبِيعَ مُعْظَمُ رِجَالِ السَّفِينَةِ فِي الْبِلَادِ عَبِيدًا. وَأَعْجَبَ بِي قُبْطَانُ الْقَرَاصِنَةِ لِشَبَابِي
وَفِطْنَتِي؛ فَفَرَّرَ الْإِحْتِفَاطَ بِي.

وَبِذَلِكَ، فِي صَرْبَةٍ وَاحِدَةٍ، تَحَوَّلْتُ مِنْ تَاجِرٍ إِلَى عَبْدٍ، فَكُنْتُ فِي مُنْتَهَى التَّعَاسَةِ. تَرَدَّدْتُ
 كَلِمَاتٍ وَالِدِي فِي ذَهْنِي، وَأَدْرَكْتُ أَنَّي سَاطِلٌ أَبَدًا عَلَى هَذَا الْحَظِّ الْعَاثِرِ، فَرَغَبْتِي الْأَنَابِيَّةُ
 لِمُعَادَرَةِ دِيَارِي لَمْ يَكُنْ لِيُقَابِلَهَا شَيْءٌ سِوَى التَّعَاسَةِ.
 قَضَيْتُ أَيَّامًا طَوِيلَةً أَعْمَلُ فِي حَدِيقَةِ سَيِّدِي، وَكَذَلِكَ أَقُومُ بِالْعَدِيدِ مِنَ الْمَهَامِّ الْمُنْزِلِيَّةِ،
 لَكِنَّ قَلْبِي وَجَسَدِي تَاقَا إِلَى الْعُودَةِ لِلْبَحْرِ، حَيْثُ تَتَوَقَّرُ لِي عَلَى الْأَقْلُ فُرْصَةٌ لِلْهَرَبِ، لَكِنَّ
 السَّيِّدَ لَمْ يَأْخُذْنِي قَطُّ إِلَى رِحْلَاتِهِ لِلصَّيْدِ، بَلْ كَانَ يَتْرُكُنِي لِلْعَمَلِ.
 شَعَرْتُ أَنَّ كُلَّ يَوْمٍ يَمُرُّ عَلَيَّ أَطْوَلُ مِنْ سَابِقِهِ، وَمَرَّتْ سَنَتَانِ بِبُطْءٍ. لَيْلَ نَهَارَ لَمْ
 أَحْلُمُ بِشَيْءٍ سِوَى الْهَرَبِ. وَدُونَ أَصْدِقَاءٍ، لَمْ يَتَّبَقْ لِي سِوَى أَفْكَارِي لِتُونِسَ وَحَدِيثِي. كَانَ
 الْعَمَلُ شَاقًّا وَالشَّمْسُ مُحْرِقَةً. فَهَلْ سَأَقْضِي بَقِيَّةَ حَيَاتِي عَلَى هَذَا الْمِنْوَالِ؛ عَالِقًا فِي بَلَدٍ
 غَرِيبٍ، عَبْدًا لِسَيِّدٍ بَغِيضٍ؟

فُرْصَةُ الْهَرَبِ

أَخِيرًا، فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ صَحِبَنِي سَيِّدِي أَنَا وَعَبْدًا آخَرَ، يُدْعَى إِسْمَاعِيلَ، لِصَيْدِ السَّمَكِ مَعَهُ، لَكِنَّ الْجَوَّ تَغَيَّرَ سَرِيعًا فِي غَيْرِ صَالِحِنَا، فَعَلِقْنَا فِي ضَبَابٍ كَثِيفٍ، وَعِنْدَمَا تَمَكَّنَّا مِنْ الرُّؤْيَةِ بُوْضُوحٍ، أَبْحَرْتُ أَنَا وَإِسْمَاعِيلُ بَعِيدًا بَدَلًا مِنَ الْعُودَةِ لِلْمَنْزِلِ. وَبَعْدَمَا لَاقَيْنَا بَعْضَ الْمَشَقَّةِ، جَدَفْنَا بِأَمَانٍ عَائِدِينَ إِلَى الشَّاطِئِ.

حَدَّثَ أَمْرَانِ بَعْدَ ذَلِكَ جَعَلَانِي أَفْكَرُ فِي كَيْفِيَّةِ الْهَرُوبِ؛ الْأَوَّلُ: كَانَ سَيِّدِي قَدْ اسْتَعَانَ بِنَجَارٍ لِإِصْلَاحِ قَارِبِ الصَّيْدِ، فَأَصْبَحَ حِينَئِذٍ أَكْثَرَ اسْتِعْدَادًا لِحَوْضِ الْبِحَارِ فِي رِحَلَاتِ أَطُولِ.

وَجَالَتْ بِخَاطِرِي الْفِكْرَةُ: «إِنَّ الْقَارِبَ الْجَدِيدَ مَتِينٌ، وَيُمْكِنُنِي الْإِتْبَاعُ عَلَى مَتْنِهِ عَنْ مِينَاءِ سَلَا إِذَا أُتِيحَتْ لِي الْفُرْصَةُ!» يَا لِلْحَظِّ الْحَسَنِ الَّذِي جَعَلَ حَادِثَتَنَا تُخَيِّفُ سَيِّدِي! بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأُسْبُوعِ نَفْسِهِ، خَطَطَ سَيِّدِي لِإِقَامَةِ أُمْسِيَّةٍ مُمْتَعَةٍ عَلَى الْقَارِبِ لِبَعْضِ الْأَصْدِقَاءِ، وَكَانَ هَذَا هُوَ الْأَمْرَ الثَّانِي الَّذِي تَصَادَفَ وَقُوعُهُ لِمُسَاعَدَتِي فِي الْهَرَبِ. وَأَمْرَنِي بِتَخْزِينِ كَمِّيَّاتٍ مِنَ الْمُونِ، وَكَذَلِكَ كَانَ عَلَيَّ تَلْمِيعُ الْقَارِبِ عَلَى أَكْمَلِ وَجْهِهِ، وَتَرْبِيئُهُ مِنْ أَجْلِ الْحَفْلِ.

وَفِي الْيَوْمِ اللَّاحِقِ، وَقَبْلَ عَشْرِ دَقَائِقَ فَقَطُ مِنَ الْمَوْعِدِ الْمَحْدَدِ لِمُعَادَرَتِنَا، جَاءَ السَّيِّدُ وَصَعِدَ إِلَى الْمَرْكَبِ بِخُطُواتٍ ثَقِيلَةٍ. وَكَانَ غَاضِبًا! وَبَدَأَ لِي أَنَّ أَصْدِقَاءَهُ عَزَفُوا عَنْ قَضَاءِ الْيَوْمِ فِي الْبَحْرِ، فَأَمْرَنِي بِاصْطِحَابِ إِسْمَاعِيلِ وَقُصُورِي، وَهُوَ عَبْدٌ آخَرٌ، لِلصَّيْدِ. فَحَتَّى

لَوْ لَمْ يَذْهَبُوا لِلْبَحْرِ، فَلَا يَزَالُ السَّيِّدُ يُرِيدُ أَنْ يُطْعِمَ أَصْدِقَاءَهُ سَمَكًا طَارَجًا فِي الْعِشَاءِ الْخَاصِّ.

فَكُرْتُ بِحَمَاسٍ: «تِلْكَ هِيَ فُرْصَتِي! يُمَكِّنِي الْهَرَبُ!» لَكِنْ كَيْفَ؟ أَتَقْنَعْتُ إِسْمَاعِيلَ أَنَّنَا يَجِبُ أَلَّا نَأْكُلَ طَعَامَ السَّيِّدِ، لِذَا أَحْتَرَنَ فِي الْفَارِبِ مُوْنًا أَكْثَرَ.

وَبَيْنَمَا كَانَ هُوَ بَعِيدًا يُعِدُّ لَنَا الْأَعْرَاصَ، أَسْرَعْتُ فِي إِحْضَارِ بَعْضِ الْأَشْيَاءِ الْأُخْرَى الَّتِي قَدْ نَحْتَاجُ إِلَيْهَا: شُمُوعٌ وَمِنْشَارٌ وَمِطْرَقَةٌ وَبَعْضُ خَيْوِطِ الْقَنْبِ وَفَأْسٌ.

وَبَعْدَهَا، تَحَايَلْتُ عَلَى قُصُورِي لِيجِدَ لَنَا بَعْضَ الْبَارُودِ، فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّنَا يُمَكِّنُنَا صَيْدُ بَعْضِ الطُّيُورِ الْبُرِّيَّةِ لِنَتَعَتَّى بِهَا. فَقَالَ لِي مُبْتَسِمًا: «نَعَمْ، يَا لَهَا مِنْ فِكْرَةٍ رَائِعَةٍ بِالْفِعْلِ!»

وَبَعْدَ بَضْعِ دَقَائِقَ، كُنَّا مُسْتَعِدِّينَ، وَأَبْحَرَ ثَلَاثَتُنَا بِاتِّجَاهِ الْمِيَاءِ. وَتَعَلَّبْنَا عَلَى الصَّعَابِ لِفَتْرَةِ طَوِيلَةٍ، وَبَعْدَهَا نَكَّسْنَا أَشْرَعَتَنَا لِلصَّيْدِ. فِي هَذَا الْيَوْمِ، كُنْتُ الرِّيَّاحُ تَهَبُّ مِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ وَالشَّمَالِ الشَّرْقِيِّ، وَكُنْتُ أَرْجُو أَنْ تَأْتِيَ الرِّيَّاحُ مِنَ الْجَنُوبِ؛ فِيهَا، يُمَكِّنُنِي الْإِبْحَارُ إِلَى إِسْبَانِيَا، لَكِنِّي لَمْ أَقْنَطُ؛ فَأَيُّ رِيَّاحٍ كَانَتْ سَتَحْمِلُنِي بَعِيدًا عَنِ سَجْنِي الَّذِي أَقْبَعُ فِيهِ

عَلَى هَذِهِ الْأَرْضِ، فَكُنْتُ فَرِحًا لِمَجْرَدِ التَّفَكُّيرِ فِي الْهُرُوبِ إِلَى الْحُرِّيَّةِ.

وَكَانَ الْهُرُوبُ إِمَّا أَنْ يَحْدُثَ حِينَهَا أَوْ لَا يَحْدُثُ أَبَدًا.

قُلْتُ: «إِسْمَاعِيلُ، إِنَّ الْمِيَاءَ أَصْبَحَتْ بَارِدَةً هُنَا، فَأَنَا لَا أَصْطَادُ أَيَّ شَيْءٍ، دَعْنَا نُبْحِرُ

أَبَعَدَ قَلِيلًا.»

أَوْمَأَ بِرَأْسِهِ مُوَافِقًا وَرَفَعَ الْأَشْرَعَةَ، وَسِرْنَا فَرَسًا آخَرَ فِي دَاخِلِ الْبَحْرِ. وَقَبْلَ أَنْ يُسْقَطَ الْمِرْسَاةُ مُبَاشَرَةً، اقْتَرَبْتُ مِنْهُ مِنَ الْخَلْفِ وَقَدَفْتُ بِهِ مِنْ فَوْقِ سَطْحِ الْمَرْكَبِ.

فَصَرَخَ إِسْمَاعِيلُ وَصَاحَ: «دَعْنِي أَعُودُ إِلَى سَطْحِ الْمَرْكَبِ! مَاذَا تَفْعَلُ يَا رُوبِنْسُونُ؟ سَوْفَ تَتَسَبَّبُ بِمَقْتَلِكِ!»

فَأَجَبْتُهُ صَائِحًا: «أَنْتِ سَبَّاحٌ مَاهِرٌ. عُدِّي إِلَى الشَّاطِئِ يَا إِسْمَاعِيلُ، أَمَّا أَنَا فَسَأَهْرُبُ، وَلَا سَبِيلَ أَمَامِكَ لِإِيقَافِي!» فَأَوْمَأَ بِرَأْسِهِ، وَقَبِلَ مَصِيرَهُ، وَبَدَأَ يَسْبُحُ.

وَقَفَّ قُصُورِي عَلَى سَطْحِ الْمَرْكَبِ مُرْتَعِشًا، فَكَانَ خَائِفًا مِنْ أَنْ أَقْدِفَهُ مِنْ عَلَى سَطْحِ الْمَرْكَبِ هُوَ الْأَخَرُ.

- «قُصُورِي، لَا بَدَّ أَنْ تُقْسِمَ عَلَى مُسَاعَدَتِي، وَإِلَّا سَتَلْحَقُ بِإِسْمَاعِيلِ فِي الْبَحْرِ!» لَمْ يَكُنْ بِمَقْدُورِ قُصُورِي أَنْ يَسْبَحَ بِهَذِهِ الْمَهَارَةِ، لِذَا قَبِلَ بِشُرُوطِي عَلَى الْفُورِ.

عَلَى مَدَى السَّاعَاتِ الْقَلِيلَةِ اللَّاحِقَةِ، أَبْحَرْتُ بِاتِّجَاهِ مَضِيقِ جَبَلِ طَارِقٍ، فَحَتَّمَا
سَيْخِرُ إِسْمَاعِيلُ سَيِّدَنَا أَيَّ اتِّجَاهٍ سَلَكْنَا؛ لِدَا أَرَدْتُهُ أَنْ يَعْتَقِدَ أَنِّي ذَاهِبٌ إِلَى السَّاحِلِ
الْإِسْبَانِيِّ، وَبِمَجَرَّدِ هُبُوطِ الْعَسَقِ، رَجَعْتُ بِالْقَارِبِ، فَكَانَ اتِّجَاهُنَا الْجَدِيدُ صَوْبَ الْجَنُوبِ.
وَكَانَتْ مِنْطَقَةٌ مُخِيفَةٌ وَمَجْهُولَةٌ، لَكِنَّهَا أَفْضَلُ مِنْ أَنْ يُدْرِكَنَا أَحَدٌ، وَلَمْ أَرِدْ أَبَدًا أَنْ أَعُودَ
لِلْعُبُودِيَّةِ مِنْ جَدِيدٍ.

الفصل السابع

الأحرارُ

أَبْحَرْنَا لِمَدَّةِ خَمْسَةِ أَيَّامٍ قَبْلَ أَنْ نَتَوَقَّفَ. كُنَّا حِينِنِذٍ بَعِيدَيْنِ بِمَا يَكْفِي عَنْ مِينَاءِ سِلا ثَمَّ
أَبْحَرْنَا إِلَى أَعَالِي نَهْرِ عَظِيمٍ، لَكِنِّي لَمْ أَعْرِفْ تَحْدِيدًا أَيْنَ كُنَّا، لَكِنَّ هَذَا لَمْ يَهْمَنِي، تَكْفِينِي
حُرِّيَّتِي. إِلَّا أَنَّ قَاصُورِي لَمْ يَكُنْ مُتَحَمِّسًا مِثْلِي لِلِابْتِعَادِ عَنِ السَّيِّدِ، فَكَانَ مَدْعُورًا؛ وَكَلَّمَا
أَبْحَرْنَا إِلَى أَعَالِي النُّهْرِ، ازْدَادَ رَجَاءً أَلَّا نَذْهَبَ إِلَى الشَّاطِئِ، وَخَاصَّةً بَعْدَ سَمَاعِنَا أَصْوَاتًا
عَالِيَةً لِحَيَوَانَاتٍ لَا نَعْرِفُهَا. وَمَالَتِ الشَّمْسُ لِلْمَغِيبِ، فَفَعَلْتُ كَمَا طَلَبَ مِنِّي قَاصُورِي وَلَمْ
أُعَامِرْ بِالنُّزُولِ مِنَ الْمَرْكَبِ هَذِهِ اللَّيْلَةَ، فَرَقَدْنَا عَلَى سَطْحِ الْمَرْكَبِ، وَنَظَرْنَا حَوْلَنَا نَتَرَقَّبُ.
بَعْدَهَا بِقَلِيلٍ وَقَعَ أَمْرٌ مَا! وَحُوشٌ ضَخْمَةٌ جَاءَتْ إِلَى الشَّاطِئِ، مُصْدِرَةً أَصْوَاتًا عَالِيَةً
وَمُرْعَبَةً، أَصْوَاتًا مُخِيفَةً لَمْ تَسْمَعْهَا أَذُنَايَ مِنْ قَبْلُ.

انْخَلَعَ قَلْبَانَا مِنَ الرَّعْبِ، وَعِنْدَمَا سَبَحَ أَحَدُ الْوُحُوشِ تَجَاهَنَا فَرَعْنَا! مَاذَا لَوْ وَصَلَ إِلَى
الْمَرْكَبِ؟ مَاذَا لَوْ صَعِدَ إِلَى سَطْحِ الْمَرْكَبِ؟ مَاذَا لَوْ أَغْرَقَ الْمَرْكَبَ؟ مَاذَا سَنَفْعَلُ حِينَهَا؟
هَرُولْتُ مُسْرِعًا وَأَمْسَكْتُ بِأَحَدِ بِنَادِقِنَا وَأَطْلَقْتُ النَّارَ فِي الْهَوَاءِ لِأُخِيفَهُ، وَوَقَعَ مَا أَرَدْتُهُ!
فَأَسْرَعَ الْوُحُوشُ وَسَبَحَ عَائِدًا إِلَى الشَّاطِئِ.

تَسَاءَلَ قَاصُورِي: «مَاذَا سَنَفْعَلُ؟»

أَجَبْتُهُ: «حَسَنًا، إِنَّنَا نَحْتَاجُ إِلَى مِيَاهِ الشُّرْبِ، فَلَمْ يَتَبَقْ مَعَنَا أَيُّ مِنْهَا. وَبِالرُّعْمِ مِنْ

فَرَعْنَا، عَلَيْنَا الذَّهَابُ لِلشَّاطِئِ عَدَا.»

ارْتَفَعَتِ الشَّمْسُ بَاكِرًا فِي صَبَاحِ الْيَوْمِ التَّالِيِ، وَجَدَفْنَا بِطُغْيٍ نَحْوِ الْيَابِسَةِ، وَالْقَيْنَا

بِالْمِرْسَاةِ. وَبَعْدَهَا، قَفَزْتُ أَنَا وَقَاصُورِي وَسَبَحْنَا سَرِيعًا قَدْرَ اسْتِطَاعَتِنَا إِلَى الشَّاطِئِ.

فَكُنْتُ أَحْسَى أَنْ يَسْرِقَ مَرْكَبَنَا أَهْلَ الْبَلَدِ؛ لِذَا لَمْ أُرِدِ الدَّهَابَ بِهَا تِجَارَةَ الشَّاطِئِ أَكْثَرَ
مِمَّا يَنْبَغِي، فَفَدَّ سَمِعْتُ قِصَصًا مُرْبِعَةً عَنْ بَحَّارَةٍ عَلِقُوا فِي بَلَدٍ غَرِيبٍ مَعَ أَشْخَاصٍ غَيْرِ
وَدُودِينَ يَسْرِقُونَ قَوَارِبَهُمْ وَجَمِيعَ أُمَّعَتِهِمْ، وَلَمْ يُسْمَعْ عَنْ هَؤُلَاءِ الْبَحَّارَةِ ثَانِيَةً قَطُّ! وَقَالَ
قَصُورِي إِنَّهُ سَيَتَحَلَّى بِالشَّجَاعَةِ وَسَيَذْهَبُ لِاحْتِضَارِ مَاءِ الشُّرْبِ. فَجَلَسْتُ بِجَانِبِ الْمَرْكَبِ
أُرَاقِبُ بِمَنْظَارِي.

وَبَعْدَ وَقْتٍ قَلِيلٍ، جَاءَ عَدُوًّا، فَظَنَنْتُ أَنَّ هُنَاكَ مَا يُلَاحِظُهُ؛ لِذَا جَرَيْتُ نَحْوَهُ لِأَرَى إِنْ
كُنْتُ أَسْتَطِيعُ الْمُسَاعَدَةَ. وَعِنْدَمَا وَصَلْتُ إِلَيْهِ، أَرَانِي قَصُورِي بِفَخْرٍ أَنَّهُ اصْطَادَ حَيَوَانًا
بَرِّيًّا، بَدَأَ كَأَنَّهُ أَرْتَبَ بَرِّيًّا، لَكِنَّ الْوَانَةَ مُخْتَلِفَةً وَأَرْجُلُهُ أَطْوَلُ، مِنْ الْمَوْكِدِ أَنَّ هَذِهِ الْأَرْضُ
مَلِيئَةٌ بِالْعَجَائِبِ!

صَحْتُ مِنَ الْمَفَاجَأَةِ: «حَسَنًا فَعَلْتَ يَا قَصُورِي!»

أَكُنَّا حَتَّى شَبِعْنَا هَذِهِ اللَّيْلَةَ، وَكُنَّا فِي غَايَةِ السَّعَادَةِ لِغُثُورِنَا عَلَى الْمَاءِ وَالْغِذَاءِ دُونَ
أَنْ نُلَاقِيَ أَيًّا مِنْ أَهْلِ الْبَلَدِ أَوْ تِلْكَ الْوُحُوشِ الَّتِي أَرَعَبْتَنَا لَيْلَةَ الْأَمْسِ.

دَفَعْتَنِي رِحْلَاتِي السَّابِقَةَ لِسَاحِلِ شِمَالِ أَفْرِيْقِيَا إِلَى التَّفَكُّيرِ بِأَنَّنا كُنَّا عَلَى وَشْكِ
الْوُصُولِ إِلَى جُزْرِ الْكِنَارِيِّ، لَكِنْ بَدُونَ الْمَعَدَّاتِ، لَا يُمَكِّنُنِي الْجَزْمُ بِمَكَانِنَا بِالضَّبْطِ.
فَبَدُونَ مَعْرِفَةِ مَكَانِ اتِّجَاهِنَا، وَاصْلِنَا الْإِبْحَارَ بِمُحَادَاةِ الشَّاطِئِ. وَكَانَ أَمَلِي هُوَ مُصَادَفَةَ
سَفِينَةِ تِجَارَةٍ إِنْجِلِيزِيَّةٍ يُمَكِّنُهَا أَنْ تُعِيدَنَا إِلَى وَطَنِي.

أُبْحَرْنَا بِمُحَادَاةِ مَنَاطِرَ طَبِيعِيَّةٍ مُزْدَهَرَةٍ مَلِيئَةٍ بِالْحَيَوَانَاتِ الْمُثِيرَةِ. وَلَمْ نَتَعَرَّفْ عَلَى
الْعَدِيدِ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ الَّتِي تَجَوَّلَتْ حَوْلَنَا، لَكِنَّا أَيْضًا تَعَرَّفْنَا عَلَى الْعَدِيدِ مِنْهَا مِثْلَ الْأُسُودِ
وَالنُّمُورِ وَالْفُهُودِ. وَكُنَّا نَتَوَقَّفُ كُلَّ يَوْمٍ لِنَبْحَثَ عَنِ الْمَزِيدِ مِنْ مِيَاهِ الشُّرْبِ. وَأَسْتَمْرَرْنَا
عَلَى هَذَا النُّحُوِّ كَثِيرًا دُونَ أَنْ نَرَى أَشْخَاصًا، حَتَّى اقْتَنَعْتُ بِأَنْ لَا أَحَدَ يَعْيشُ فِي هَذِهِ
الْأَرْجَاءِ.

الفصل الثامن

السَّفِينَةُ الْإِنْجِلِيزِيَّةُ

مَرَّتْ عَشْرَةُ أَيَّامٍ أُخْرَى قَبْلَ أَنْ نُصَادِفَ إِنْسَانًا غَيْرَنَا. أَمَا عَمِنَ قَابِلْنَا مِنَ النَّاسِ بَعْدَيْدٍ، فَكَانُوا وَدُودِينَ وَمُتَعَاوِينَ، وَكَانُوا يَرْتَدُّونَ الْقَلِيلَ مِنَ الْمَلَابِسِ وَلَا يَتَكَلَّمُونَ بِنَفْسِ لُغَتِنَا، لَكِنَّهُمْ كَانُوا فِي غَايَةِ الْكَرَمِ؛ فَأَعْطَوْنَا الْغِذَاءَ وَالْمَاءَ مَعَ أَنَّنا لَمْ نَمَلِكْ شَيْئًا لِنُعْطِيَهُمْ إِيَّاهُ فِي الْمَقَابِلِ.

وَمَعَ أَنْ هُوَ لَاءِ الْغُرَبَاءِ كَانُوا فِي غَايَةِ اللَّطْفِ، كُنَّا لَا نَزَالُ بِحَاجَةٍ إِلَى إِيجَادِ سَفِينَةٍ إِنْجِلِيزِيَّةٍ؛ فَقَارِبْنَا الصَّغِيرُ لَمْ يَكُنْ مُعَدًّا لِيَحْتَمَلَ كُلَّ هَذَا الْإِبْحَارِ، وَكَانَتْ فُرْصَتُنَا الْوَحِيدَةُ لِلنَّجَاةِ هِيَ أَنْ يُقَدِّدَنَا أَحَدٌ. لَمْ أُخْبِرْ قَاصُورِي بِقَلْقِي عَلَيْنَا بِشَأْنِ اجْتِيَازِ هَذِهِ الْمِحْنَةِ؛ فَلَمْ أَرِدْ لَهُ الْخَوْفَ أَوْ الْإِحْبَاطَ.

ظَلَلْنَا نُبْجِرُ، وَمَرَّ أُسْبُوعٌ آخَرَ، وَأَخِيرًا مَرَرْنَا عَلَى بَعْضِ الْعَلَامَاتِ الَّتِي تَعَرَّفْتُ عَلَيْهَا. فَعَلَى مَسَافَةٍ مَا يَقْرُبُ مِنْ ثَلَاثَةِ فَرَاسِخٍ مِنَ السَّاحِلِ، تَمَكَّنْتُ مِنْ رُؤْيَةِ جُزُرِ الرَّأْسِ الْأَخْضَرِ، فَأَطْلَقْتُ صَيْحَةً فَرَحًا!

سَأَلَنِي قَاصُورِي: «مَاذَا هُنَالِكَ يَا رُوبِنْسُون؟»

أَشْرْتُ عَبْرَ الْمَنَاظِرِ الطَّبِيعِيَّةِ وَقُلْتُ لَهُ: «هَلْ تَرَى هَذِهِ الْجُزُرَ؟ مِنْ هُنَا سَنَصِلُ إِلَى

إِنْجِلِيتْرَا! أَصْبَحْنَا فِي أَمَانٍ، لَقَدْ نَجَوْنَا يَا قَاصُورِي! نَجَوْنَا!»

سَرِيعًا مَا تَحَوَّلَتْ ابْتِسَامَتِي إِلَى عُبُوسٍ عِنْدَمَا أَمَعَنْتُ التَّفَكِيرَ فِي مَوْقِفِنَا، فَإِذَا انْطَلَقْنَا

عَبْرَ الْبَحْرِ الْمُمْتَدِّ وَعَلَقْنَا فِي رِيَاحٍ مُعَاكِسَةٍ، سَنَنْجِرِفُ وَلَنْ يَبْقَى لَنَا أَيُّ أُنْرٍ. فَذَهَبْتُ

لِلدَّاحِلِ لِلجُلُوسِ فِي حُجَيْرَتِي الصَّغِيرَةِ — حُجَيْرَةِ القُبْطَانِ — لِلتَّفَكِيرِ فِي الخِيَارَاتِ المُتَاحَةِ
أَمَامَنَا.

سَمِعْتُ قَصورِي يُنَادِينِي مِنَ الخَارِجِ: «يَا رُوبَسُون! أَرَى سَفِينَةً! أَرَى سَفِينَةً!»
وَكَانَتْ حَقِيقَةً، هُنَاكَ سَفِينَةٌ! وَبَدَتْ بُرْتُغَالِيَّةً. أَخَذْتُ المِنْظَارَ وَبَدَأْتُ أَنْظُرَ بِتَمَعْنٍ
لَأَرَى إِذَا كَانَتْ مُتَّجِهَةً إِلَى الشَّاطِئِ. يَا لِلخَسَارَةِ، لَمْ نَكُنْ مَحْظُوظِينَ بِمَا يَكْفِي، فَالَسَفِينَةُ
كَانَتْ تَبْجُرُ بَعِيدًا عَنَّا.

فَجَالَ فِي خَاطِرِي: «أَوَاهُ، لَا! لَنْ أَدْعُهُمْ يَذْهَبُونَ دُونَ أَنْ أَحَاوِلَ عَلَى الأَقْلَى أَنْ أُجْذِبَ
أَنْتِبَاهَهُمْ.»

قُلْتُ صَاحِحًا: «هَيَّا، يَا قَصورِي! دَعْنَا نَحَاوِلُ وَنَلْحَقُ بِهِمْ.» وَرَفَعْنَا أَكْبَرَ قَدْرٍ مِنَ
الأَشْرَعَةِ يُمْكِنُ لِمَرْكَبِنَا الصَّغِيرِ أَنْ يَتَحَمَّلَهُ بِهِ، وَلاَحَقْنَا السَفِينَةَ بِأَكْبَرِ سُرْعَةٍ مُمَكِنَةٍ، لَكِنِ
سَرِيعًا مَا اتَّصَحَّ أَنَّنَا لَنْ نَلْحَقَ بِهِمْ أَبَدًا.

وَتَسَاءَلَ قَصورِي: «مَاذَا نَفْعَلُ الآنَ، يَا رُوبَسُون؟»

قُلْتُ: «الْبِنَادِقُ! عَلَيْنَا أَنْ نَطْلُقَ النَّارَ مِنَ البِنَادِقِ وَنَأْمُلُ أَنْ يَسْمَعُونَا!»

هُرِعَ كُلُّ مَنْنَا إِلَى بِنَادِقِنَا وَبَدَأْنَا فِي إِطْلَاقِ النَّارِ، وَنَمْنَيْتُ وَدَعَوْتُ أَنْ نَسْمَعَ السَفِينَةَ
الأُخْرَى إِشَارَةً لِالإِسْتِعَاثَةِ.

لَمَلَمْتُ السَفِينَةَ الأُخْرَى أَشْرَعَتْهَا وَأَبْطَأَتِ السَّيْرُ! فَابْتَسَمْتُ ابْتِسَامَةً عَرِضَةً
لِقَصورِي وَقُلْتُ: «لَقَدْ سَمِعُوا طَلْقَاتِنَا! سَوْفَ يَنْتَظِرُونَنَا. هَيَّا بِنَا، لِنَذْهَبْ!»

اسْتَعْرَفْنَا ثَلَاثَ سَاعَاتٍ لِنَلْحَقَ بِهِمْ، وَعِنْدَمَا وَصَلْنَا بِمَحَاذِهِمْ، صَاحَ الرَّجَالُ مِنْ
عَلَى سَطْحِ سَفِينَتِهِمْ يُكَلِّمُونَنَا بِلُغَاتٍ عَدِيدَةٍ مُخْتَلِفَةٍ؛ أَوَّلًا حَاوَلُوا بِالْبُرْتُغَالِيَّةِ، وَبَعْدَهَا
الإِسْبَانِيَّةِ، ثُمَّ الفَرَنْسِيَّةِ، لَكِنَّنَا لَمْ نَسْتَطِعْ فَهْمَ أَيِّ مِنْهَا، وَأخِيرًا تَكَلَّمَ بَحَارٌ اسْكُتْلَنْدِيٌّ مِنْ
عَلَى سَفِينَتِهِمْ صَاحِحًا: «مَنْ أَنْتُمْ؟ وَمَاذَا حَدَثَ؟»

شَرَحْتُ لَهُ أَنَّي كُنْتُ بَحَارًا إِنْجِلِيزِيًّا وَأَسْرَنِي القَرَاصِنَةُ، وَقُلْتُ لَهُ إِنَّي قَضَيْتُ
السَّنَوَاتِ القَلِيلَةَ المَاضِيَةَ فِي الأَسْرِ كَعَبْدٍ، وَأَنْبَهَرَ البَحَارَةَ مِنْ تَمَكُّنِنَا مِنَ الهَرَبِ، فَأَخَذُونِي
أَنَا وَقَصورِي عَلَى سَطْحِ سَفِينَتِهِمْ، وَأخِيرًا نَجَوْنَا!

كَانَ قُبْطَانُ السَفِينَةِ طَيِّبًا جَدًّا، فَعِنْدَمَا عَرَضْتُ عَلَيْهِ كُلَّ مَا أَمْلِكُ مِنْ أَشْيَاءٍ مُقَابِلِ
رِحْلَةٍ أَمْنِيَّةٍ إِلَى البَرَاذِيلِ، ابْتَسَمَ وَقَالَ: «سَآخِذُكُمْ مَعِي إِلَى البَرَاذِيلِ، وَلَا دَاعِيٍ لِدَفْعِ مُقَابِلٍ.»

شَكَرْتُهُ عَلَى طَيِّبَتِهِ، وَكَانَ الْقُبْطَانُ كَذَلِكَ رَحِيمًا جِدًّا مَعَ قُصُورِي وَأَعْطَاهُ فِي الْحَالِ وَظَيْفَةَ بَحَارٍ عَلَى السَّفِينَةِ، مِمَّا أَسْعَدَ قُصُورِي أَيَّمَا سَعَادَةٍ. وَعِنْدَمَا ظَنَنْتُ أَنَّ رَحْمَتَهُ لَنْ تَتَّسِعَ لِأَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، عَرَضَ عَلَيْنَا شِرَاءَ مَرْكَبِنَا الصَّغِيرِ! فَوَافَقْتُ عَلَى عَرْضِهِ فِي الْحَالِ، وَإِضَافَةً إِلَى الْمَرْكَبِ، اشْتَرَى بَعْضَ عَتَادِنَا الْآخَرَ أَيْضًا.

حَظِينَا بِرِحْلَةٍ أَمْنَةٍ وَسَعِيدَةٍ إِلَى الْبِرَازِيلِ، وَحَصَلْتُ عَلَى الْمَالِ مِنَ الْقُبْطَانِ الطَّيِّبِ، مِمَّا يَعْنِي أَنِّي لَمْ أَكُنْ مُفْلِسًا تَمَامًا عَلَى أَرْضِ غَرِيبَةٍ لَمْ تَطَّأَهَا قَدَمَايَ مِنْ قَبْلُ. وَأَقَمْتُ مَعَ أَحَدِ أَصْدِقَاءِ الْقُبْطَانِ، وَكَانَ يَمْتَلِكُ وَيُدِيرُ مَرْعَةً كَبِيرَةً لِلسُّكَّرِ، وَبَدَأَ عَمَلُ زِرَاعَةِ السُّكَّرِ شَائِقًا فِي رَأْيِي؛ إِذَا حَاوَلْتُ التَّعَلُّمَ قَدَّرَ مَا اسْتَطَعْتُ.

اسْتَهْوَتْني حَيَاةُ الزَّرَاعَةِ، وَبِالْمَالِ الَّذِي أَحَدْتُهُ مِنَ الْقُبْطَانِ الطَّيِّبِ، اشْتَرَيْتُ قِطْعَةً أَرْضٍ كَبِيرَةً وَجَيِّدَةً، وَخَطَّطْتُ لِإِقَامَةِ مَرْعَةٍ سُّكَّرٍ مِثْلِ الْمَرْعَةِ حَيْثُ كُنْتُ أُقِيمُ. وَكَانَتْ فُرْصِي عَظِيمَةً فِي الْبِرَازِيلِ، لَكِنْ لِكَيْ أَبْقَى كُنْتُ أَحْتَاجُ لِخَطَابِ تَجْنِيسٍ، وَكَمَا عَرَفْتُ لَمْ يَكُنْ الْحُصُولُ عَلَيْهِ عَاسِرًا.

الفصل التاسع

حياة الزراعة

عَلَى مَدَى السَّنَتَيْنِ اللَّاحِقَتَيْنِ، تَوَسَّعَتْ رُقْعَةُ أَرْضِيَّ وَزَادَتْ مَحَاصِيلِي، وَلَكِنْ إِنْتَاجِي كَانَ قَلِيلًا، وَكَانَ بِالْأَسَاسِ يَسُدُّ حَاجَتِي وَحَاجَةَ طَائِفَةِ الْعَمَلِ مِنَ الْغِذَاءِ وَيَحَافِظُ عَلَيَّ صِحَّتِنَا. وَمَعَ هَذَا، بَدَأْتُ بِشَائِرِ النَّجَاحِ مُبَهَّرَةً، وَكُنْتُ سَعِيدًا بِتَقْدُمِي حَتَّى ذَلِكَ الْحِينِ.

كَانَ هُنَاكَ شَأْبٌ صَغِيرٌ يَمْتَلِكُ الْمَرْعَةَ الْمَجَاوِرَةَ لِمَرْعَتِي، وَكَانَ بُرْتَعَالِيًّا بِالْمِيلَادِ، وَلَكِنَّ أَبَوَيْهِ كَانَا إِنجِلِيزِيَّيْنِ، وَكَانَ يَدْعَى وَيِلِز. أَصْبَحْنَا صَدِيقَيْنِ عَزِيزَيْنِ، بَلْ وَحَتَّى جَارَيْنِ فَاضِلَيْنِ. وَعَلَى مَدَى هَاتَيْنِ السَّنَتَيْنِ، نَمَتْ مَزَارِعُنَا بِنَفْسِ السَّرْعَةِ تَقْرِيبًا، فَكَانَ كُلُّ مَنَا يُجِيدُ طَرِيقَتَهُ فِي امْتِلَاكِ مَزَارِعِ قَصَبِ سَكَّرٍ نَاجِحَةً.

كُنْتُ أَنَا وَوِيلِزُ فِي الْعَادَةِ نَسِيرُ فِي جَوْلَاتٍ طَوِيلَةٍ مَعًا. تَحَدَّثْنَا فِي كُلِّ شَيْءٍ: مَزَارِعُنَا وَخَطَطُنَا لِلْمُسْتَقْبَلِ وَمَاضِينَا، وَأَذْكُرُ أَنَّي أَخْبَرْتُهُ يَوْمًا مَا أَنَّي أَشْعُرُ كَأَنِّي رَجُلٌ عَلِقَ فِي جَزِيرَةٍ مَهْجُورَةٍ هُنَاكَ فِي الْبَرَازِيلِ، وَأَخْبَرْتُهُ عَنِ وَالِدِي، وَعَنْ مَدَى اشْتِيَاقِي إِلَيْهِ هُوَ وَوَالِدَتِي.

قَالَ إِنَّهُ مِنَ الطَّبِيعِيِّ أَنْ أَفْتَقِدَ وَالِدَيَّ. وَكَانَ مُحَقًّا، فَكَانَ أَبِي لِيَسْعَدَ بِرُؤْيَتِي؛ إِذْ بَنَيْتُ حَيَاةَ كَرِيمَةً، وَكُنْتُ سَعِيدًا فِيهَا وَأَمِنًا، وَفِي طَرِيقِي لِأَصْبِحَ ثَرِيًّا.

جَنِينًا مَحْضُولًا جَيِّدًا فِي السَّنَةِ التَّالِيَةِ كَذَلِكَ. وَكَانَ لَدَيَّ كُلُّ مَا قَدْ يَمَنَّاهُ الْإِنْسَانُ؛ مَرْعَةٌ مُنْمَرَةٌ، وَمَالٌ، وَأَصْدِقَاءٌ. لَكِنِّي لَمْ أَكُنْ هَانِتًا؛ فَنِي عَمِيقِي قَلْبِي، أَدْرَكْتُ أَنَّ الْمَشَاعِرَ سَتَنْتَصِرُ عَلَى الْمُنْطِقِ، فَزَعَتِي الْحَمَقَاءُ لِلِإِثَارَةِ غَالِبًا مَا تَكُونُ لَهَا الْعَلْبَةُ.

فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ، تَحَدَّثْتُ عَنْ مُغَامِرَاتِي فِي الْبَحْرِ لِأَيِّ شَخْصٍ يُمَكِّنُهُ أَنْ يَسْتَمَعَ، وَمَعَ كُلِّ مَرَّةٍ أُرْوِي فِيهَا الْحِكَايَاتِ، تَكْبُرُ الْقِصَصُ. وَاسْتَحْوَذَ الْإِهْتِمَامُ الشَّدِيدُ بِرِحْلَاتِي عَلَى

مَجْمُوعَةٍ مِنْ أَصْحَابِ الْمَزَارِعِ الْآخَرِينَ، فَحَمَسْتَهُمْ الْفُرْصَةَ فِي أَنْ يُصْبِحُوا أَكْثَرَ نَرَاءً.
 وَعَاجِلًا، وَضَعْنَا الْخُطَطَ لِتَجْهِيزِ سَفِينَةٍ لِرِحْلَةٍ بَحْرِيَّةٍ إِلَى أُفْرِيْقِيَا.
 عَرَفْتُ بِقَلْبِي أَنَّ هَذَا الْقَرَارَ أَحْمَقُ، لَكِنَّهُ مَا إِنَّ دَخَلَ حَيِّزَ التَّنْفِيذِ كَجَرِّ بَدَأٍ فِي
 التَّدْحُرِجِ لِأَسْفَلِ تَلٍّ، لَمْ يَكُنْ بِيَدِي حِيلَةٌ لِإِقْفَاهِهِ. فَلَمْ أَكُنْ فِي حَاجَةٍ لِأَنْ أُرِيدَ ثَرَوَتِي، وَلَمْ
 أَكُنْ فِي حَاجَةٍ لِأَعْيُرَ حَيَاتِي، وَلَمْ أَكُنْ فِي حَاجَةٍ إِلَى أَيِّ مُغَامَرَةٍ، بَلْ كُنْتُ أَنَا مَنْ دَمَّرَ نَفْسِي.
 وَلَمْ أَسْتَطِعْ مُقَاوَمَةَ الْعَرِضِ، مِثْلَمَا رَفَضْتُ الْإِصْغَاءَ لِوَالِدِي مُنْذُ عِدَّةِ سَنَوَاتٍ.
 تَحَدَّدْتُ تَوَارِيخُ الرِّحْلَةِ الْبَحْرِيَّةِ، وَبَعْدَهَا بَوَقْتٍ وَجِيزٍ كَانَتْ السَّفِينَةُ جَاهِزَةً
 لِلانْطِلَاقِ. وَوَضَعْنَا خُطَطَ التِّجَارَةِ الرَّسْمِيَّةِ وَكَتَبْتُ وَصِيَّةً، وَتَرَكْتُ وَيْلَزَ مَسْئُولًا عَنْ
 كُلِّ شَيْءٍ، وَاثِقًا أَنَّهُ سَيَعْتَنِي بِمَزْرَعَتِي أَنْتَاءَ غِيَابِي.

أَفْرِيقِيَا مِنْ جَدِيدٍ

صَعِدْتُ إِلَى سَطْحِ السَّفِينَةِ فِي الْأَوَّلِ مِنْ سِبْتَمْبَرِ ١٦٥٩، بَعْدَ ثَمَانِي سَنَوَاتٍ بِالضَّبْطِ مِنْ الْيَوْمِ الَّذِي قُمْتُ فِيهِ بِرِحْلَتِي الْأُولَى الْمَشْهُومَةِ مِنْ هَالٍ، لَكِنِّي حَاوَلْتُ أَلَّا أَفَكَّرَ بِهِذَا، فَلَمْ أَرُدْ أَنْ أَنْحَسَ رِحْلَتِي.

حَمَلَتِ السَّفِينَةُ ١٢٠ طُنًّا مِنَ الْمُونِ، وَأَرْبَعَةَ عَشَرَ رَجُلًا، إِضَافَةً إِلَى الْقُبْطَانِ، وَخَادِمِهِ، وَأَنَا. وَلَمْ تَكُنْ حَمُولَتَنَا كَبِيرَةً عَلَى ظَهْرِ السَّفِينَةِ، فَقَطُّ مَا أَرَدْنَا مُقَايَصَتَهُ مَعَ الْأَفْرِيقَةِ.

عِنْدَمَا بَدَأْنَا الرِّحْلَةَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، كَانَ الطَّقْسُ رَائِعًا، فَأَشْرَقَتِ الشَّمْسُ بِسُطُوعٍ، وَهَبَّتِ الرِّيَّاحُ فِي الْإِتِّجَاهِ الْمُوَاتِي بِالضَّبْطِ. وَسَلَكْنَا طَرِيقَنَا شَمَالًا، قَاصِدِينَ الْإِبْحَارَ إِلَى أَفْرِيقِيَا، حَيْثُ وَصَلْنَا إِلَى دَائِرَةِ عَرْضِ عَشْرِ أَوْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ دَرَجَةً.

صَرَبْتْنَا عَاصِفَةٌ عَاتِيَةٌ بَعْدَ إِبْحَارِنَا بِاثْنَيْ عَشَرَ يَوْمًا، فَكَانَ عَلَيْنَا أَنْ نَتَمَاسَكَ بَيْنَمَا نَتَقَازِفُ الْعَاصِفَةَ السَّفِينَةَ هُنَا وَهَنَاكَ. فَقَدْنَا ثَلَاثَةَ رِجَالٍ أَثْنَاءَ هَذَا الْإِعْصَارِ؛ فَمَاتَ أَحَدُهُمْ مِنَ الْإِلْتِهَابِ الرَّئُوبِيِّ، وَجَرَفَتِ الْمِيَاهُ الْإِثْنَيْنِ الْأَخْرَيْنِ مِنْ عَلَى سَطْحِ السَّفِينَةِ، وَاسْتَمَرَّتِ الْعَاصِفَةُ تَعْصِفُ بِنَا لِأَسْبُوعَيْنِ مُتَوَاصِلَيْنِ، وَمَلَأَ الرُّعْبُ قُلُوبَنَا.

بَعْدَ مُرُورِ مَا بَدَأَ لَنَا دَهْرًا، هَذَا الطَّقْسُ أَحْيَاءٌ، لَكِنَّا قَدْ فُتْنَا بَعِيدًا عَنْ مَسَارِنَا وَأَرَادَ الْقُبْطَانُ مَعْرِفَةَ مَكَانِنَا الْحَالِيَّةِ، فَقَضَيْتُ سَاعَاتٍ فِي حُجْرَةِ الْقُبْطَانِ، أَحَاوِلُ مَعَهُ تَقْرِيرَ مَاذَا نَفَعَلُ؛ رَاجِعِنَا خَرَائِطُنَا، وَرُسُومَنَا الْبَحْرِيَّةَ، وَرُسُومَنَا الْبَيَانِيَّةَ.

قَالَ الْقُبْطَانُ بَعْدَ تَفْكِيرٍ مُتَمَعِّنٍ: «رُبَّمَا يَتَحَتَّمُ عَلَيْنَا أَنْ نَذْهَبَ مِنْ حَيْثُ أَتَيْنَا».

أَجَبْتُهُ: «لَكُنَّا بَعِيدُونَ جِدًّا عَنِ الْمَسَارِ، لَعَلَّ مِنَ الْأَسْلَمِ أَنْ نَتَّجِهَ إِلَى جُزْرِ الْكَارِيبِيِّ،
فَعَلَى الْأَقْلِّ يُمَكِّنُنَا هُنَاكَ إِعَادَةُ تَهْيِئَةِ السَّفِينَةِ، وَقَدْ نَجِدُ اثْنَيْنِ مِنَ الْبَحَّارَةِ يَرْعَبَانِ فِي
الْإِنْضِمَامِ لِطَاقِمِنَا.»

نَظَرَ بَعْنَايَةَ فِي الْوَرَقِ عَلَى مَنْصَدَتِهِ وَقَالَ: «هَذَا صَحِيحٌ، يُمَكِّنُنَا أَنْ نَصِلَ إِلَيْهَا فِي
الْأَسَابِيعِ الْقَلِيلَةِ الْقَادِمَةِ. وَأَظُنُّ أَنَّكَ مُحَقٌّ، هَذِهِ هِيَ أَفْضَلُ الْخُطِطِ.»

وَأَخْبَرَ الْقُبْطَانُ طَاقِمَ السَّفِينَةِ أَنَّهَا مُنْتَهَوْنَ إِلَى الْكَارِيبِيِّ، وَعَيَّرْنَا مَسَارَنَا فِي حِينِهِ.
وَكَانَتِ السَّفِينَةُ مُتَضَرَّرَةً بِشِدَّةٍ، وَيَتَسَرَّبُ الْمَاءُ إِلَيْهَا بَكثْرَةٍ. وَبِالرُّغْمِ مِنْ هَذِهِ الْمَشْكَلَاتِ،
فَكُنَّا عَلَى ثِقَةٍ مِنْ إِمْكَانِيَّةِ بُلُوغِنَا بَارْبَادُوسَ فِي غُضُونِ أُسْبُوعَيْنِ تَقْرِيْبًا.

تَحَطُّمُ السَّفِينَةِ!

خِلَالَ يَوْمَيْنِ مِنْ تَغْيِيرِنَا لِلْمَسَارِ، هَبَّتْ عَاصِفَةٌ أُخْرَى، وَقَدَفَتْنَا الرِّيَّاحُ بَعِيدًا — تَجَاهَ أَقْصَى الْغَرْبِ — وَمِنْ جَدِيدٍ، ضَلَلْنَا طَرِيقَنَا تَمَامًا فِي الْبَحْرِ.

اسْتَمَرَّتِ الرِّيَّاحُ تَعْصِفُ بِقُوَّةٍ حَتَّى الْيَوْمِ التَّالِيِ، بَلْ لِلْيَوْمِ الَّذِي يَلِيهِ. وَفِي الصَّبَاحِ

الْبَاكِرِ، سَمِعْتُ أَحَدَ الرَّجَالِ يَصِيحُ: «مَرَحَى، أَرْضُ!»

وَفِي لَحْظَتِهَا تَقْرِيبًا ارْتَطَمْنَا بِمُرْتَفَعِ رَمْلِيٍّ، وَتَأَرَّجَحَتِ السَّفِينَةُ بِعُنْفٍ لِلْخَلْفِ

وَالْأَمَامِ، وَفَاضَتْ عَلَيْنَا مِيَاهُ الْبَحْرِ، حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّنَا هَالِكُونَ لَا مَحَالَةَ. فَجَرَيْنَا إِلَى

الْحُجْرَاتِ لِنَحْتَمِيَ بِهَا، وَكُنَّا فِي مَوْقِفٍ عَصِيبٍ، فَلَمْ نَكُنْ نَدْرِي أَيْنَ كُنَّا، وَلَا نَدْرِي مَا إِذَا

كَانَتِ الْأَرْضُ مَأْهُولَةً أَمْ لَا، وَلَا نَدْرِي هَلْ سَنَنْجُو أَمْ لَا.

عَلِقَتِ السَّفِينَةُ، وَبَاتَ مِنَ الْمُؤَكَّدِ تَحَطُّمُهَا إِلَى أَجْزَاءٍ، إِنْ لَمْ تَغْيِرِ الرِّيَّاحُ اتِّجَاهَهَا فِي

الْحَالِ. نَظَرَ بَعْضُنَا إِلَى بَعْضٍ وَهَيَّأْنَا أَنْفُسَنَا لِلْأَسْوَأِ. وَكُنَّا جَمِيعًا مُبْلَلِينَ بِالْمَاءِ وَنَزْتَجِفُ،

وَأَصَابَ الْفُتُورَ أَرْوَاحَنَا مِنْ جَرَاءِ أَحْدَاثِ الْأَسَابِيعِ الْقَلِيلَةِ الْمَاضِيَةِ. ثُمَّ، حَدَثَ التَّغْيِيرُ فِي

الرِّيَّاحِ.

قَالَ الْقُبْطَانُ: «لَدَيْنَا فُرْصَةٌ الْآنَ، يَا شَبَابُ! دَعُونَا نُنْزِلِ الْقَارِبَ الصَّغِيرَ إِلَى الْبَحْرِ

وَنَجِدُفَ إِلَى الشَّاطِئِ. فَهَذَا هُوَ أَمَلُنَا الْوَحِيدُ!»

وَبَعْدَمَا كَانَ لَدَيْنَا قَارِبَانِ صَغِيرَانِ عَلَى سَطْحِ السَّفِينَةِ، لَمْ يَنْبَقِ مِنْهُمَا إِلَّا وَاحِدٌ فَقَطْ

مُنْذُ الْإِعْصَارِ الْأَوَّلِ. وَتَطَلَّبَ الْأَمْرُ بَدَلَ مَجْهُودَاتِ شَاقَّةٍ كَي نَسْتَطِيعَ فَقَطْ إِنْزَالَ الْقَارِبِ

بِسَلَامَةٍ إِلَى الْبَحْرِ وَجَمِيعِ الرِّجَالِ إِلَى سَطْحِهِ. وَتَلَطَّمَتِ الْأَمْوَاجُ حَوْلَنَا بَيْنَمَا كُنَّا نَجِدُّفُ
بِاسْتِمَاتَةٍ إِلَى الشَّاطِئِ. وَكُنَّا تَحْتَ رَحْمَةِ الْقَدْرِ، فَدَعَا الْكَثِيرُ مِنَ الرِّجَالِ حَتَّى نَنْجُو.
كَانَ الشُّغْلُ الشَّاغِلُ لِكُلِّ فَرْدٍ مِنَّا هُوَ الْوُصُولُ إِلَى الشَّاطِئِ، سَوَاءً أَكَانَ صَخْرِيًّا أَمْ
غَيْرَ ذَلِكَ، أَمَّا أَمْ غَيْرَ ذَلِكَ، فَلَمْ نُبَالِ. فَجَدَّفْنَا بِجَهْدٍ شَدِيدٍ لِأَنَّ حَيَاتَنَا تَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ. وَكَانَتْ
فُرْصَتُنَا الْوَحِيدَةُ هِيَ أَنْ نَجِدَ خَلِيجًا أَوْ فَمَّ نَهْرٍ؛ فَبِدُونِ هَذَا سَنَنْجَرِفُ إِلَى الْعَاصِفَةِ
وَنَضِيعُ فِي الْبَحْرِ. كُنَّا نُرِيدُ الْعُنُورَ عَلَى مَاءٍ هَادِيٍّ لِنَتَمَكَّنَ مِنَ الْوُصُولِ لِشَاطِئِ السَّلَامَةِ.
جَدَّفْنَا لِمَا يُقَارِبُ الْفَرَسَخَ وَبِصَفِّ الْفَرَسَخِ قَبْلَ أَنْ تَأْتِيَ مَوْجَةٌ عَالِيَةٌ عُلُوَّ الْجَبَلِ
بِاتِّجَاهِنَا، وَضَرَبَتْ الْقَارِبَ سَرِيعًا، فَقَدَفْنَا جَمِيعًا مِنْ عَلَى الْقَارِبِ، وَابْتَلَعْنَا الْمِيَاهُ بِالْكَامِلِ
فِي لَحْظَةٍ.

كَانَ الْأَمْرُ مُرْعَبًا؛ إِذْ كَانَتْ الْأَمْوَاجُ قَوِيَّةً، وَمَعَ أَنِّي سَبَّاحٌ مَاهِرٌ، إِلَّا أَنْ ذِرَاعِي لَمْ
تَكُونَا بِالْقُوَّةِ الَّتِي تُضَاهِي قُوَّةَ الْمِيَاهِ، بَلْ إِنِّي لَمْ أُسْتَطِعِ الصُّعُودَ لِسَطْحِ الْمَاءِ لِأَلْتَقِطَ
أَنْفَاسِي. وَحَمَلْتَنِي الْمِيَاهُ لِلْأَمَامِ بِاتِّجَاهِ الشَّاطِئِ، وَامْتَلَأَتْ رِئَتَايَ بِالْمَاءِ، فَبَدَأْتُ أَسْأَلُ،
لِكِنِّي كُنْتُ أَعْرِفُ أَنَّي إِنْ لَمْ أَرْحَفْ لِلْأَمَامِ، فَلَنْ يَكُونَ لَدَيَّ أَمَلٌ فِي النِّجَاةِ.
وَقَبْلَ أَنْ أَتَمَكَّنَ مِنَ الْوُقُوفِ، جَذَبَنِي الْمَوْجُ بَيْنَ بَرَاتِنِهِ وَأَلْقَى بِي ثَانِيَةً إِلَى الْبَحْرِ.
وَكَانَتْ الْمِيَاهُ تَدُورُ مِنْ حَوْلِي فِي دَوَامَةٍ بَيْنَمَا كُنْتُ أَصَارِعُ كَيْ لَا أُغْرِقَ. وَفِي لَحْظَتِهَا
تَقْرِيبًا، شَعَرْتُ بِقَدَمِي تَلْمَسُ الْقَاعَ، فَوَقَفْتُ مِنْ فَوْرِي، وَأَخَذْتُ أَدْخُلُ أَكْبَرَ قَدْرٍ مِنَ الْهُوَاءِ
إِلَى رِئَتِي قَدْرَ اسْتِطَاعَتِي قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَنِي الْبَحْرُ وَيَجْرِنِي ثَانِيَةً إِلَى الْأَسْفَلِ.
وَفِي ثَالِثٍ أَوْ رَابِعٍ مَرَّةٍ يَجْرِنِي فِيهَا الْبَحْرُ لِلْأَسْفَلِ، اصْطَدَمَ صَدْرِي بِصَخْرَةٍ وَتَوَقَّفَ
تَنْفَسِي بِالْكَامِلِ.

وَفَكَّرْتُ: «هَذِهِ هِيَ النَّهَائِيَّةُ، سَأَمُوتُ هُنَا، سَأَمُوتُ الْآنَ.»
وَمَعَ كُلِّ حَظِي الْعَاثِرِ، يَبْدُو أَنَّهُ كَانَ لَدَيَّ مَوْهَبَةٌ حَقِيقِيَّةٌ بِالْفِعْلِ؛ مَوْهَبَةٌ النَّجَاةِ.
فَفِي الْمَرَّةِ التَّالِيَةِ الَّتِي دَفَعَنِي التِّيَّارُ فِيهَا لِلْأَمَامِ بِاتِّجَاهِ الشَّاطِئِ، اسْتَجَمَعْتُ كُلَّ قُوَّايَ،
وَلَمَسْتُ قَدَمَايَ الْقَاعَ، وَدَفَعْتُ بِنَفْسِي لِلنُّهُوضِ خَارِجَ الْمِيَاهِ وَجَزَيْتُ بَعِيدًا عَلَى الشَّاطِئِ
قَدْرَ اسْتِطَاعَتِي. فَجَرَيْتُ بِكُلِّ مَا بَقِيَ فِيَّ مِنْ قُوَّةٍ، ثُمَّ نَزَلْتُ عَلَى رُكْبَتَيْ، وَجَعَلْتَنِي كُلَّ

تَحَطُّمُ السَّفِينَةِ!

الْمِيَاهِ الْمَالِحَةِ فِي مَعِدَّتِي أُصَابُ بِالْغَتِّيَانِ لِذَقِيقَةِ، لَكِنِّي نَجَوْتُ. وَكَفَانِي ذَلِكَ؛ فَمَا زِلْتُ حَيًّا.

الفصل الثاني عشر

جَزِيرَةُ الْيَاسِ

مَا إِنْ أَصْبَحْتُ قَادِرًا عَلَى الْوُقُوفِ، حَتَّى نَظَرْتُ حَوْلِي. أَيْنَ جَمِيعِ رِفَاقِي؟ هَلْ فُقِدُوا جَمِيعًا؟ هَلْ كُنْتُ أَنَا النَّاجِي الْوَحِيدَ؟ وَسَرِيعًا جِدًّا، تَكَشَّفَتْ حَقِيقَةُ مَوْقِفِي؛ فَكُلُّ مَا وَجَدْتُهُ مِنْهُمْ فَلَنَسُوهُ وَاحِدَةً، وَثَلَاثَ قُبَعَاتٍ، وَحِذَاءٍ.

صَرَخْتُ مُلْتَمِعًا: «لَا! قُلْ إِنَّ الْوَضْعَ لَيْسَ كَمَا أَرَى! لَا يُمَكِّنُ أَنْ أَكُونَ أَنَا النَّاجِي الْوَحِيدًا!»

بَقِيَ لِي شَيْءٌ مِنَ الْأَمَلِ وَقَتْنَدٍ، فَلَمْ أَكُنْ أَدْرِي شَيْئًا عَنْ مَوْعِي، وَلَمْ يَكُنْ لَدَيَّ مَلَابِسُ جَافَةٌ، وَلَا مِيَاهُ شُرْبٍ وَلَا شَيْءٌ لِأَسْتَحْدِمَهُ فِي صَيْدِ طَعَامِي. فَمَعَ أَنِّي لَمْ أَغْرَقْ مِثْلَ بَاقِي رِفَاقِي مِنَ الْبَحَّارَةِ الْمَسَاكِينِ، إِلَّا أَنْ أَمَلِي فِي النَّجَاةِ كَانَ وَاهِيًا. فَالْشَيْءُ الْوَحِيدُ الْمَوْجُودُ بِجَنَابِي هُوَ سَكِّينٌ صَغِيرَةٌ، فَأَيُّ فَائِدَةٍ تُرَجَى مِنْ سَكِّينٍ وَاحِدَةٍ فِي مَكَانٍ غَرِيبٍ بِلَا مَأْوَى وَلَا طَعَامٍ؟

صَرَخْتُ بِأَعْلَى صَوْتِي. وَكَانَ حَالِي مَيْئُوسًا مِنْهُ؛ فَاللَّيْلُ يَهْبِطُ، وَكُنْتُ أَحْتَاجُ أَنْ أَجِدَ مَأْوَى، وَكَانَ يُوجَدُ عَدَدٌ مِنَ الْأَشْجَارِ بَعْدَ مَنْطِقَةِ الشَّاطِئِ مُبَاشَرَةً. وَلَمْ أَسْتَعْرِقْ وَقْتًا طَوِيلًا كَيْ أَجِدَ شَجَرَةً تَبْدُو كَمَكَانٍ جَيِّدٍ لِلِاخْتِبَاءِ خِلَالَ اللَّيْلِ، فَتَسَلَّقْتُهَا وَوَجَدْتُ غُصْنًا مُرِيحًا. وَلَا بُدَّ أَنْ الْمَوْقِفَ الْمُرِيعَ أَرْهَقَنِي بِلَا شَكٍّ، فَتَمَكَّنْتُ مِنَ الْحُصُولِ عَلَى قِسْطِ ضَيْئِلٍ مِنَ النَّوْمِ.

أَشْرَقَتِ الشَّمْسُ بِسُطُوعٍ فِي صَبَاحِ الْيَوْمِ التَّالِيِ، وَكَانَ الْبَحْرُ هَادِئًا، وَتَوَقَّفَتِ الْعَاصِفَةُ. وَمَعَ أَنَّ الطَّقْسَ تَغَيَّرَ وَأَصْبَحَ مَاتِعًا، إِلَّا أَنَّ مَعْنَوِيَّاتِي وَحَالِي لَمْ يَتَحَسَّنَا كَثِيرًا. نَزَلْتُ مِنْ مَكَانِي الْعَالِي عَلَى الشَّجَرَةِ، وَعُدْتُ إِلَى الشَّاطِئِ.

وَصِحْتُ مُتَعَجِّبًا: «أَهْ يَا إِلَهِي!» فَالْسَّفِينَةُ كَانَتْ عَالِقَةً فِي بَعْضِ الصُّخُورِ عَلَى بُعْدِ فَرَسَخٍ تَقْرِيبًا مِنَ الْمَكَانِ حَيْثُ جَرَفْتَنِي الْمِيَاهُ، وَلَمْ تَكُنْ مَحَطَّمَةً! فَلَوْ بَقِينَا فَقَطْ عَلَى سَطْحِهَا، لَنَجُونَا كُلُّنَا، لَكِنِّي لَمْ أَسْتَطِعِ التَّفَكِيرَ فِي هَذَا الْآنَ.

بَلْ جَالَ فِي خَاطِرِي: «الآنَ، هَذَا يَبْعَثُ عَلَى الْأَمَلِ، فَكُلُّ مَا عَلَيَّ فَعَلُهُ هُوَ التَّفَكِيرُ فِي كَيْفِيَّةِ الْوُصُولِ لِلْمُؤْنِ. وَيَبْدُو أَنَّ فُرْصَتِي فِي النِّجَاةِ لَمْ تَضَعْ بَعْدُ.»

انْتظَرْتُ تَرَاوُجَ الْمَدِّ، فَكَانَتِ الْمِيَاهُ شَبَهَ ضَحَلَةٍ بِمَا يُتِيحُ لِي السَّيْرَ إِلَى السَّفِينَةِ. نَزَعْتُ مُعْظَمَ مَلَابِسِي لِكَيْ أَبْقِيَهَا جَافَةً، وَكُنْتُ خَائِفًا مِنَ الْمِيَاهِ، لَكِنِّي كُنْتُ فِي حَاجَةٍ إِلَى الْوُصُولِ لِلْسَّفِينَةِ. فَابْتَلَعْتُ مَخَاوِفِي وَبَدَأْتُ السَّيْرَ. وَعِنْدَمَا أَصْبَحَتِ الْمِيَاهُ عَمِيقَةً وَصَعِبَ الْمَشْيُ فِيهَا، سَبَحْتُ بَاقِي الْمَسَافَةِ. وَكَانَ هُنَاكَ حَبْلٌ يَتَدَلَّى مِنْ جَانِبِ السَّفِينَةِ، فَاسْتَحْدَمْتُهُ لِلصُّعُودِ إِلَى السَّطْحِ.

أَحَذْتُ وَقْتِي وَنَظَرْتُ فِي أَرْجَاءِ السَّفِينَةِ الَّتِي رَسَتْ تَقْرِيبًا بِكَامِلِهَا عَلَى جَانِبٍ وَاحِدٍ. وَكَانَ الْمَخْرَزُ مُمْتَلِئًا بِالْمِيَاهِ، نِصْفُهُ مُبَلَّلٌ بِالْكَامِلِ، بَيْنَمَا بَقِيَ النِّصْفُ الْآخَرُ جَافًا تَمَامًا. وَلِحُسْنِ الْحَظِّ، احْتَوَى النِّصْفُ الْجَافُ عَلَى الْعَدِيدِ مِنَ الْمُؤْنِ. فَنَزَلْتُ إِلَى الْقِسْمِ الَّذِي كَانَ يُوجَدُ فِيهِ الْخُبْزُ وَأَكَلْتُ بِسُرْعَةٍ بَعْضَ الْبَسْكَوَيْتِ، وَمَا إِنْ تَوَقَّفْتُ مَعِدَّتِي عَنِ الْفَرْقَرَةِ، بَدَأْتُ فِي جَمْعِ أَشْيَاءَ أَدْرَكْتُ أَنَّي سَاحْتَاجُهَا.

اسْتَحْدَمْتُ كُلَّ الْخَشَبِ وَالْحَبَالِ الزَّائِدِينَ، مِمَّا تَمَكَّنْتُ مِنَ الْعُثُورِ عَلَيْهِ لِإِنْبَاءِ طَوْفٍ صَغِيرٍ كَيْ أَنْقَلَ الْمُؤْنَ مِنَ السَّفِينَةِ عَائِدًا إِلَى الشَّاطِئِ. وَبَعْدَ تَجْرِبَتِهِ عِدَّةَ مَرَّاتٍ، كَانَ مُلَاتِمًا لِحَمَلِ حَتَّى أَثْقَلَ الْأَشْيَاءَ. وَبِدَائِي، أَنْقَذْتُ الْكَلْبَ الَّذِي كَانَ مَعَنَا عَلَى سَطْحِ السَّفِينَةِ، فَكَانَتْ مُعْجَزَةٌ أَنَّهُ نَجَا مِنَ الْعَاصِفَةِ بِأَيِّ حَالٍ!

أَثْلَفَتِ الْمِيَاهُ الْعَدِيدَ مِنْ مُتَعَلِّقَاتِ الْبَحَّارَةِ الشَّخْصِيَّةِ؛ لِذَا قَرَّرْتُ اسْتِحْدَامَ صَنَادِيْقِهِمْ كَيْ أُخْزِنَ طَعَامِي وَأَجْمَعَهُ. فَكَانَ لَدَيَّ الْخُبْزُ وَالْأُرْزُ وَالْجُبْنُ وَلَحْمُ الْمَاعِزِ وَالْقَلِيلُ مِنْ

جَزِيرَةُ الْيَأْسِ

الْحُبُوبِ الْأُورُوبِيَّةِ. وَأَفْسَدَتِ الْفَيْزَانَ الْقَمَحَ، مِمَّا أَحْبَبْتَنِي وَلَكِنْ لَا يَسْعُنِي فِعْلُ أَيِّ شَيْءٍ حِيَالَ ذَلِكَ الْآنَ.

وَتَبَادَرَ إِلَى ذِهْنِي: «أَتَمَنَّى أَنْ يَطَّلَ الْبَحْرُ هَادِنًا لِمَدَّةٍ تَتِيحُ لِي الْعُودَةَ». وَلِذَا، لَا مَزِيدَ مِنَ التَّبَاطُؤِ. وَجَدْتُ أَيْضًا مَلَابِسَ، وَصُنْدُوقَ نَجَارٍ وَبَعْضَ الْأَسْلِحَةِ.

وَعَقَدْتُ الْعِزْمَ: «هَذَا يَكْفِي لِلْيَوْمِ، وَحَانَ وَقْتُ الدَّهَابِ». وَبِوَاسِطَةِ مَجْدَافَيْنِ مَكْسُورَيْنِ وَجَدْتُهُمَا عَلَى سَطْحِ السَّفِينَةِ، جَدَّفْتُ بِنَفْسِي مُتَحَرِّكًا نَحْوَ الشَّاطِئِ، وَلَكِنَّ الصُّخُورَ أَمَامَ الشَّاطِئِ حَيْثُ رَسَوْتُ الْبَارِحَةَ كَانَتْ خَطِرَةً جِدًّا. فَلَكِي أَرْسُو بِالطُّوفِ فِي سَلَامٍ، كَانَ عَلَيَّ أَنْ أَجِدَ جَدُولًا صَغِيرًا أَوْ نَهْرًا.

فَكَّرْتُ بِتَعَقُّلٍ: «لَا بَدَّ أَنْ آيًّا مِنْهُمَا يُوجَدُ بِالْجَوَارِ». لِذَا جَدَّفْتُ بَعِيدًا عَنِ شَاطِئِي. وَكَانَ الْبَحْرُ لَا يَزَالُ هَادِنًا، حَمْدًا لِلَّهِ. وَهَبَّتِ الرِّيَّاحُ فِي صَالِحِي، لَكِنِّي عَرَفْتُ أَنَّ مِثْلَ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ يُمَكِّنُهَا أَنْ تَتَّغَيَّرَ فِي لَحْظَةٍ. وَتَلَاعَبَ الْبَحْرُ بِالطُّوفِ مِنَ الْخَلْفِ وَالْأَمَامِ، وَاسْتَعْنَتْ بِقَدَمِي لِأَتَشَبَّتَ بِقُوَّةٍ بِحَمُولَتِي. نَبَحَ الْكَلْبُ، وَلَمْ يَكُنْ بُوَسْعِي تَحْمُلُ خَسَارَةَ أَيِّ شَيْءٍ؛ لِذَا حَاوَلْتُ أَنْ أَكُونَ فِي شِدَّةِ الْحَرِصِ.

جَدَّفْتُ فِي الْأَرْجَاءِ حَتَّى وَجَدْتُ نَهْرًا، ثُمَّ اسْتَغْرَقْتُ نَحْوَ سَاعَتَيْنِ لِأَجِدَ مَكَانًا مُنَاسِبًا لِإِرْسَاءِ الطُّوفِ. وَمَا إِنْ سَحَبْتُ كُلَّ أَشْيَائِي إِلَى الشَّاطِئِ، أَمَنْتُ الطُّوفَ كَيْ اسْتَعْمَلَهُ فِي الْعَدِ. وَأَمَّا الْخَطُوةُ الْهَامَّةُ التَّالِيَةُ، فَكَانَتْ إِيجَادَ مَكَانٍ آمِنٍ لِتَحْزِينِ كُلِّ شَيْءٍ.

قَفَزَ الْكَلْبُ عَنِ الطُّوفِ تَقْرِيبًا فِي الْحَالِ، وَبَدَأَ يَكْتَشِفُ وَيَشْتَمُّ كُلَّ شَيْءٍ يَرَاهُ، وَسَلَّحَتْ نَفْسِي بِمُسَدِّسٍ وَبَعْضِ الْبَارُودِ، وَكَانَ هَدْيِي إِيجَادَ مَأْوَى آيًّا مَا كَانَ، مَأْوَى أَكْثَرَ رَاحَةً مِنَ الشَّجَرَةِ!

لَاحَظْتُ وَجُودَ تَلٍّ صَغِيرٍ مِنْ عَلَيَّ بَعْدَ، وَكَانَ يَبْعُدُ قُرَابَةَ مِيلٍ، فَكَلَّمْتُ لِنَفْسِي: «رُبَّمَا يُمَكِّنُنِي الرُّؤْيَةُ بِصُورَةٍ أَفْضَلَ مِنَ الْأَعْلَى هُنَاكَ». وَمَعَ الْكَلْبِ فِي رِفْقَتِي، بَدَأْتُ رِحْلَتِي فِي هَذَا الْإِتْجَاهِ.

قُلْتُ لَهُ: «حَسَنًا، سَتَحْتَاجُ إِلَى اسْمٍ إِذَا كُنَّا سَنَعُدُّ صَدِيقَيْنِ، فَبِمَاذَا أَدْعُوكَ؟» نَبَحَ الْكَلْبُ بِالْإِجَابَةِ، وَضَحِكْتُ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ مُنْذُ يَوْمَيْنِ: «عَرَفْتُ. فَسَادْعُوكَ شَيْبِي؛ لِأَنِّي أَنْقَذْتُكَ مِنْ عَلَى السَّفِينَةِ.»

سَرْنَا لِفَتْرَةٍ، ثُمَّ أَصْبَحَ الطَّقْسُ شَدِيدَ الْحَرَارَةِ، وَعِنْدَمَا بَلَغَتْ قَمَّةَ التَّلِّ، رَأَيْتُ أَنَّي
عَلَى جَزِيرَةٍ، وَلَا يُوجَدُ أَيُّ بَشَرٍ سِوَايَ فِي الْأَرْجَاءِ، عَلَى الْأَقْلِّ لَمْ أَرِ أَيًّا مِنْهُمْ بِأَيِّ حَالٍ.
وَكَانَ يُوجَدُ الْعَدِيدُ مِنَ الطُّيُورِ الْجَمِيلَةِ، لَكِنِّي لَمْ أَتَعَرَّفْ عَلَى أَيِّ نَوْعٍ بِعَيْنِهِ مِنْهَا.
وَبَعْدَ اسْتِكْشَافِ الْجَزِيرَةِ بِسُرْعَةٍ، هَبَطْتُ عَائِدًا إِلَى الطُّوفِ، وَفَكَّكْتُ مُنْعَلَقَاتِي
وَرَتَّبْتُهَا. وَمَا أَثَارَ دَهْشَتِي، أَنَّ هَذَا اسْتَعْرَقَ مِنِّي بَاقِيَ الْيَوْمِ. أَكَلْتُ الْمَزِيدَ مِنَ الْبُسْكُونِ،
ثُمَّ صَنَعْتُ مَا يُشْبِهُ الْكُوْخَ مُسْتَحْدِمًا صِنَادِيْقَ الْبَحَّارَةِ، فَلَمْ أُرِدْ أَنْ يَلْتَهَمَنِي أَيُّ مِنَ
الْحَيَوَانَاتِ فِي الْمَسَاءِ!

الفصل الثالث عشر

مَلَاذُ مَوْقَتٍ

رَجَعْتُ فِي الْيَوْمِ التَّالِي مُبَاشَرَةً إِلَى السَّفِينَةِ لِأَرَى مَاذَا أَيْضًا يُمَكِّنِي الْإِحْتِفَاطُ بِهِ. وَكَانَ مِنَ الْمُهْمِّ تَجْمِيعُ كُلِّ شَيْءٍ صَغِيرٍ يُمَكِّنُنِي جَمْعُهُ، فَرَبَّمَا تَعَصَّفُ عَاصِفَةٌ أُخْرَى فِي أَيِّ دَقِيقَةٍ وَتَجْرِفُ السَّفِينَةَ بَعِيدًا، وَلَا أُرِيدُ إِضَاعَةَ فُرْصَتِي فِي الْإِحْتِفَاطِ بِشَيْءٍ يُمَكِّنُهُ أَنْ يَجْعَلَ حَيَاتِي أَفْضَلَ، بَيْنَمَا لَا زِلْتُ مُحَاصِرًا فِي هَذِهِ الْجَزِيرَةِ. وَذَهَبْتُ مُجَدِّدًا عِنْدَمَا كَانَ النَّيَّارُ مُنْخَفِضًا. وَسَحَبْتُ الطَّوْفَ خَلْفِي بَيْنَمَا كُنْتُ أَسْبَحُ بَعِيدًا إِلَى السَّفِينَةِ، ثُمَّ رَبَطْتُهُ بِنَفْسِ الْحَبْلِ الَّذِي اسْتَحْدَمْتُهُ لِلصُّعُودِ.

وَفِي هَذِهِ الْمَرَّةِ، قَرَّرْتُ الْإِسْتِعَانَةَ بِطَوْفٍ ثَانٍ؛ لِذَا صَنَعْتُ طَوْفًا آخَرَ مُسْتَعِينًا بِالْأَوَّلِ كَنَمُودَجٍ. وَجَمَعْتُ الْعَدِيدَ مِنَ الْأَشْيَاءِ عَلَى هَذَيْنِ الطَّوْفَيْنِ! فَأَخَذْتُ مَسَامِيرَ وَالْمَزِيدَ مِنَ الْبِنَادِقِ وَبَعْضَ الْمَلَابِسِ وَالْمَزِيدَ مِنَ الطَّعَامِ وَجَمِيعَ مُسْتَلْزَمَاتِ الْبِنَاءِ الَّتِي أَمَكَّنَتْنِي الْعُثُورُ عَلَيْهَا، بَلْ أَخَذْتُ أَيْضًا الشُّرَاعَ الْإِحْتِيَاطِيَّ. وَعِنْدَمَا امْتَلَأَ الطَّوْفَانِ جَدَّفْتُ عَائِدًا تَجَاهَ النَّهْرِ وَصَوْلًا إِلَى مَكَانِ اخْتِبَائِي.

وَعِنْدَمَا عُدْتُ، وَجَدْتُ قِطْعَةً بَرِيَّةً جَالِسَةً عَلَى أَحَدِ صِنَادِيقِي!

فَصَحْتُ: «ابْتَعِدِي! اذْهَبِي! اتركِي صُنْدُوقِي وَشَأْنَهُ!» لَكِنَّ الْقِطْعَةَ لَمْ تَتَزَحَّزَخْ، وَفَقَطْ نَظَرْتُ إِلَيَّ بَعِينَتَيْهَا الْوَاسِعَتَيْنِ الْجَمِيلَتَيْنِ كَأَنَّهَا تَقُولُ: «عَلَيْكَ أَنْ تُحَاوَلَ بِأَفْضَلِ مَنْ ذَلِكَ يَا سَيِّدًا!»

قَدَفْتُ بِقِطْعَةٍ بِسُكُوتٍ بِاتِّجَاهِ الْعَابَاتِ، وَنَجَحَتِ الْحَيْلَةُ! فَرَكَضَتِ الْقِطْعَةُ خَلْفَهَا
وَأَكَلَتْهَا فِي قَضَمَةٍ وَاحِدَةٍ سَرِيعَةً. وَمِنْ مَظْهَرِ الْأَشْيَاءِ، أَدْرَكْتُ أَنَّ الْقِطْعَةَ لَمْ تُتْلَفْ شَيْئًا،
بَلْ فِي الْحَقِيقَةِ، لَمْ يَأْتِ أَيُّ حَيَوَانَ آخَرَ إِلَى هُنَاكَ، وَكَانَ هَذَا مُؤَشِّرًا طَيِّبًا.

كَانَتْ خُطُوبِي التَّالِيَةَ هِيَ بِنَاءِ خَيْمَةٍ مُنَاسِبَةٍ؛ لِذَا قَطَعْتُ أَوَّلًا بَعْضَ الْأَغْصَانِ مِنَ
الشَّجَرِ الْمُحِيطِ بِمَحِيْمِي الْجَدِيدِ، ثُمَّ اسْتَخْدَمْتُ الشَّرَاعَ الْإِحْتِيَاطِيَّ مَعَ بَعْضِ الْحَبَالِ
الَّتِي وَجَدْتُهَا عَلَى السَّفِينَةِ. وَبِمَجْرَدِ الْإِنْتِهَاءِ مِنَ الْخَيْمَةِ، أَحْضَرْتُ لِلدَّخْلِ كُلِّ شَيْءٍ يُمَكِّنُ
أَنْ يَفْسُدَ إِذَا أَصْبَحَ الْمَكَانُ شَدِيدَ الرُّطُوبَةِ مِنَ الْمَطَرِ أَوْ شَدِيدَ الْحَرَارَةِ مِنَ الشَّمْسِ.
وَأَخِيرًا، صَنَعْتُ مَضْجَعًا أَكْثَرَ رَاحَةً بِالِاسْتِعَانَةِ بِأَرْجُوْحَتَيْنِ شَبَكِيَّتَيْنِ تَسْنَى لِي أَحَدُهُمَا
مِنَ السَّفِينَةِ. وَأَسْلَمَنِي الْعَمَلُ الْمُضْنِي وَالْمَكَانُ الْمُرِيحُ إِلَى النَّوْمِ عَلَى الْفُورِ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ.

وَعَلَى مَدَى الْأُسْبُوعَيْنِ التَّالِيَيْنِ، اسْتَمَرَّرْتُ عَلَى نَفْسِ مَنْوَالٍ أَوَّلِ يَوْمَيْنِ، فِيهِ الصَّبَاحِ،
وَبَعْدَمَا يَهْدَأُ التِّيَّارُ، أَسْبَحُ إِلَى السَّفِينَةِ سَاحِبًا خَلْفِي طُوفِيَّ، وَأَبْحَثُ مِنْ مُقَدِّمَةِ السَّفِينَةِ
حَتَّى مُؤَخَّرَتِهَا عَنْ أَيِّ شَيْءٍ رُبَّمَا يَكُونُ مُفِيدًا. وَبَعْدَ قِضَاءِ نَحْوِ السَّاعَتَيْنِ فِي تَجْمِيعِ
الْمُونِ، أُجَدِّفُ عَائِدًا بِالطُوفَيْنِ لِلشَّاطِئِ. وَعَلَى سَطْحِ السَّفِينَةِ وَجَدْتُ بَعْضَ الْأَشْيَاءِ الْأَكْثَرَ
إِثَارَةً، وَمِنْهَا مِقْصٌ (وَكَانَ عَظِيمَ الْفَائِدَةِ فِي الْحَقِيقَةِ!) وَشَفْرَةٌ حَلَاقَةٍ، حَتَّى يُمَكِّنِي
الْحَلَاقَةُ، كَمَا وَجَدْتُ صُنْدُوقًا بِهِ مِنَ الذَّهَبِ مَا تَزِيدُ قِيَمَتَهُ عَنْ ثَلَاثِينَ جِنِيْهَا، وَلَمْ أَرَ لَهُ
أَيَّ نَفْعٍ، إِلَّا أَنَّنِي أَخَذْتُهُ مَعِي عَلَى أَيِّ حَالٍ، بِالرُّغْمِ مِنْ عَدَمِ وُجُودِ مَكَانٍ أَنْفِقُهُ فِيهِ!

وَفِي الْيَوْمِ الْأَخِيرِ مِنَ الْأُسْبُوعَيْنِ الْأَوَّلَيْنِ انْقَلَبَ الطَّقْسُ فِي النَّهَائَةِ، وَكَانَتْ بِالْفِعْلِ آخِرَ
رِحْلَةٍ لِي إِلَى السَّفِينَةِ، فَلَدَيَّ تَقْرِيْبًا كُلِّ شَيْءٍ يُمَكِّنِي اسْتِخْدَامَهُ، بَلْ وَأَكْثَرَ. هَبَّتِ الرِّيَّاحُ
سَرِيعًا، وَكَانَتِ الْبِضَائِعُ ثَقِيلَةً بَيْنَمَا كُنْتُ أُجَدِّفُ جَاهِدًا لِلْعُودَةِ إِلَى الشَّاطِئِ، وَعَرَفْتُ
حِينَهَا أَنَّ لَدَيَّ فُرْصَةً وَاحِدَةً فَقَطْ لِلْعُودَةِ قَبْلَ الْعَاصِفَةِ؛ لِذَا وَلِلْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ عَلَى مَدَى
عِدَّةِ أَسَابِيعٍ، كُنْتُ أُجَدِّفُ لِلنَّجَاةِ بِحَيَاتِي. فَاصْتَمَيْتُ مِيَاهَ الْأَمْوَاجِ الْمُتَلَاظِمَةِ فَوْقَ الطُوفَيْنِ،
وَلَمْ يَكُنْ لَدَيَّ الْوَقْتُ حَتَّى لِلتَّفَكُّيرِ فِي مَاذَا يُمَكِّنُ أَنْ يَحْدُثَ؛ فَجَدَدْتُ وَجَدَفْتُ، وَكَانَ عَلَيَّ
الْعُودَةُ.

لَمْ تَذْهَبْ مَجْهُودَاتِي سُدىً، وَعَمَّا قَلِيلٍ أَصْبَحْتُ مُرْتَاحًا فِي خَيْمَتِي، أَسْتَمِعُ إِلَى صَوْتِ
الْمَطَرِ يَهْطِلُ مِنْ حَوْلِي. ضَرَبَتِ الرِّيَّاحُ شَرَاعَ الْخَيْمَةِ بِقُوَّةٍ، وَكَانَ بِإِمْكَانِي سَمَاعَ تَأَرْجِحِ

الأشجار، وحفيف أوراقها. ولا بدَّ أن العاصفة استمرت طوال الليل، لكنني لم أسمعها،
فقد نمتُ قَرِيرَ العَيْنِ فِي حَيْمَتِي الَّتِي اصْطَنَعْتُهَا بِيَدَيَّ. وَاسْتَيْقَظْتُ فِي صَبَاحِ اليَوْمِ التَّالِيِ
وَجَرَيْتُ نَحْوَ الشَّاطِئِ لِأَجْدَ أَنْ السَّفِينَةَ اخْتَفَتْ تَمَامًا!
فَتَبَادَرَ إِلَى ذَهْنِي: «حَسَنًا، مِنَ الْمُؤَكَّدِ أَنْ الْحَظَّ ظَلَّ يُرَافِقُنِي لِمُدَّةٍ طَوِيلَةٍ بِمَا يَكْفِي.»
وَقَفْتُ هُنَاكَ لِذَقِيقَةٍ أَنْظُرُ إِلَى الْمَكَانِ الْخَاوِيِ وَأُفَكِّرُ فِي السَّفِينَةِ وَالطَّاقِمِ وَقُبْطَانِنَا. وَفَكَّرْتُ
كَذَلِكَ كَمَا كَانَتْ حَيَاتِي مُخْتَلِفَةً مِنْ أُسْبُوعَيْنِ فَقَطْ.

الفصل الرابع عشر

الشَّهْرُ الْأَوَّلُ

الآنَ، وَقَدِ انْتَهَيْتُ مِنْ رِحْلَاتِي اليَوْمِيَّةِ مِنْ وَإِلَى السَّفِينَةِ، كَانَ عَلَيَّ أَنْ أَنْبِي مَأْوَى أَكْثَرَ دَوَامًا. وَكَانَ أَهْمُ شَيْءٍ فِي حَيَاتِي وَقَفْتَنِيْدُ هُوَ ضَمَانٌ أَمْنِي وَسَلَامَتِي مِنْ أَيِّ حَيَوَانٍ بَرِّيٍّ أَوْ أَهْلِ الْمُنْطَقَةِ.

فَتَسَاءَلْتُ: «هَلْ سَيَكُونُ مِنَ الْأَفْضَلِ بِنَاءُ حَيْمَةٍ أَكْثَرَ دَوَامًا؟ أَمْ أَنَّهُ مِنَ الْأَذْكَى الْعُثُورُ عَلَى كَهْفٍ أَعِيشُ فِيهِ؟» جَلَسْتُ عَلَى الشَّاطِئِ وَفَكَّرْتُ مَلِيًّا فِي كِلَا الْخِيَارَيْنِ وَقُلْتُ لِنَفْسِي: «أَظُنُّ أَنَّي أَحْتَاجُ كِلَيْهِمَا: كَهْفًا لِلتَّخْزِينِ وَحَيْمَةً أَفْضَلَ.»

انْتَسَمَ الشَّاطِئُ حَيْثُ أَقَمْتُ الْمُحَيِّمَ بِالْحَرَارَةِ الشَّدِيدَةِ وَعَدَمِ قُرْبِهِ مِنْ مِيَاهِ الشَّرْبِ، إِلَّا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُهْمِّ أَيْضًا أَنْ أَتَمَكَّنَ مِنْ رُؤْيَةِ الْبَحْرِ، كَيْ أَتَرَقَّبَ مُرُورَ السُّفَنِ. سِرْتُ أَنَا وَشَيْبِي طَوِيلًا حَوْلَ الْجَزِيرَةِ، وَبَعْدَ قُرَابَةِ ثَلَاثِ سَاعَاتٍ، وَجَدْنَا سَهْلًا جَمِيلًا، أَرْضِيَّتُهُ عَشْبِيَّةٌ، عَلَى جَانِبِ تَلٍّ صَاعِدٍ، بَدَأَ لِي مَثَالِيًّا! وَاسْتَعْرَقَ نَقْلُ جَمِيعِ مُؤْنِي الْمُحَيِّمِي الْجَدِيدِ عِدَّةَ أَيَّامٍ. وَلَمْ أَكُنْ أُرِيدُ الْبَقَاءَ هُنَاكَ حَتَّى أَنْتَهِيَ تَمَامًا مِنْ نَقْلِ كُلِّ شَيْءٍ، فَتَرَكْتُ شَيْبِي هُنَاكَ فِي مُعْظَمِ اللَّيَالِي لِيَحْرُسَ أَشْيَائِي إِلَى أَنْ انْتَهَيْتُ مِنْ نَقْلِ كُلِّ شَيْءٍ مِنَ الْمُحَيِّمِ الْأَوَّلِ.

أَوَّلًا، بَنَيْتُ حِصْنًا حَوْلَ الْمُنْطَقَةِ الَّتِي خَطَطْتُ لِإِقَامَةِ حَيْمَتِي بِهَا، فَأَخَذْتُ أَشْجَارًا صَغِيرَةً مِنَ الْغَابَةِ وَرَزَعْتَهَا حَوْلَ كَهْفِ صَغِيرٍ وَجَدْتُهُ، ثُمَّ بَنَيْتُ جُدْرَانًا دَاخِلَ خَطِّ الْأَشْجَارِ مُبَاشَرَةً. وَبَدَلًا مِنْ بِنَاءِ بَابٍ لِلْمُرُورِ عَبْرَ جِدَارِي، صَنَعْتُ سُلَّمًا؛ فَلَا يُمَكِّنُكَ التَّخْلِي عَنِ الْحَدْرِ، أَوْ عَلَى الْأَقْلِّ هَكَذَا شَعْرْتُ. وَلَكِنَّ شَيْبِي كَانَ فِي حَاجَةٍ لِلدُّخُولِ

وَالْخُرُوجِ هُوَ الْأَخْرُ؛ لِذَا صَنَعْتُ لَهُ فَجْوَةً فِي الْجِدَارِ لِيَأْتِي وَيَذْهَبَ كَيْفَمَا يُحِبُّ، وَأَخْفَيْتُهَا بِسَعْفِ النَّخِيلِ كَيْ لَا يُلَاحِظُهَا أَحَدٌ. وَعِنْدَمَا انْتَهَيْتُ وَجَدْتُ فِي حِصْنِي حِمَايَةَ كَبِيرَةً وَرَاحَةً بِالْ.

بَعْدَ ذَلِكَ، صَنَعْتُ هَيْكَلًا أَكْثَرَ مَتَانَةً لِرُفْعِ قَمَّةِ الْخَيْمَةِ. وَبَنَيْتُ بَيْتِي الْجَدِيدَ قَرِبَ الْكَهْفِ، وَكُنْتُ أَسْتَحْدِمُهُ لِتَخْزِينِ الطَّعَامِ؛ وَبِذَلِكَ كُنْتُ مَشْغُولًا طَوَالَ الْأَيَّامِ. وَبِمَرُورِ كُلِّ يَوْمٍ، أَزْدَدْتُ أَمَلًا فِي النَّجَاةِ. وَفِي النِّهَايَةِ أَصْبَحْتُ جَمِيعُ مُؤْنِي مُرْتَبَةً وَمُنَظَّمَةً جِدًّا؛ فَفَصَلْتُ الْبَارُودَ فِي مَجْمُوعَاتٍ عَدِيدَةٍ مُخْتَلِفَةٍ (لِأَحْفَظَهُ فِي أَمَانٍ مِنَ الْبُرْقِ!) وَكَذَلِكَ خَزَنْتُ طَعَامِي بِعِنَايَةٍ كَيْ لَا يَفْسُدَ.

فِي هَذِهِ الْأَسَابِيعِ الْقَلِيلَةِ الْأُولَى كُنْتُ أَذْهَبُ مُصْطَحِبًا كُلْبِي وَبُنْدُقِيَّتِي لِصَيْدِ الطَّعَامِ كُلِّ صَبَاحٍ، فَكَانَ هُنَاكَ الْعَدِيدُ مِنَ الْمَاعِزِ الْبَرِّيِّ عَلَى هَذِهِ الْجَزِيرَةِ، وَأَصْبَحَ لَحْمُ الْمَاعِزِ جُزْءًا أَسَاسِيًّا مِنْ غِذَائِي الْمُعْتَادِ. وَعَلَى وَجْهِ الْعُمُومِ، أَبْلَيْتُ بِلَاءً حَسَنًا؛ فَمَنْ كَانَ يَعْرِفُ أَنَّ بَاسِطَاعَتِي بِنَاءِ حِصْنٍ أَوْ اصْطِيَادِ طَعَامٍ؟ وَمَنْ كَانَ يَعْرِفُ أَنَّ لَدَيَّ الْقُوَّةَ وَالْإِرَادَةَ لِلنَّجَاةِ؟ فَقَدْ كُنْتُ مَحْظُوظًا، إِذْ لَدَيَّ الْغِذَاءُ وَالْمَاءُ وَالْمَأْوَى؛ أَيُّ إِنَّ الْإِحْتِيَاجَاتِ الْأَسَاسِيَّةَ كَانَتْ مُتَاحَةً.

وَمَعَ تَأْمِينِ ضَرُورِيَّاتِ الْحَيَاةِ، بَقِيَ لَدَيَّ الْمَزِيدُ مِنَ الْوَقْتِ لِأَفْكَرُ، وَكَانَ أَقْسَى شَيْءٍ فِي وُجُودِي عَلَى الْجَزِيرَةِ هُوَ قِضَاءُ الْأَوْقَاتِ الطَّوِيلَةِ وَحِدِي، فَسَبَحْتُ بِي أَفْكَارِي صَوَّبَ عَائِلَتِي، وَكَانَ مِنَ الْمُحِبِّطِ النَّفْكِيرِ فِي أَنْنِي قَدْ لَا أَرَاهُمْ ثَانِيَةً أَبَدًا. وَتَذَكَّرْتُ رِفَاقِي الْبَحَّارَةَ، الَّذِينَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِثْلُ حَظِّي فَعَرِقُوا، وَقَضَيْتُ الْوَقْتِ جَالِسًا وَبَاكِيًا فَحَسْبُ. وَبِاسْتِخْدَامِ بَعْضِ الْوَرَقِ الصَّغِيرِ وَالْحَبْرِ مِمَّا اسْتَطَعْتُ الْحُصُولَ عَلَيْهِ مِنَ السَّفِينَةِ، بَدَأْتُ فِي تَسْجِيلِ يَوْمِيَّاتِي. وَفِي الْأَيَّامِ الَّتِي اسْتَمَرَّ فِيهَا نَزِيفُ قَلْبِي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِرْتُهُ أَوْ تَحَلَّيْتُ عَنْهُ، كَانَتْ الْكِتَابَةُ تُقَدِّمُ لِي يَدَ الْعَوْنِ.

فِي ذَلِكَ الْحِينِ، كَانَ أُكْتُوبرُ عَلَى وَشِكِ الْإِنْتِهَاءِ تَقْرِيبًا، وَكُنْتُ قَدْ ابْتَعَدْتُ عَنِ الْبَرَازِيلِ مِنْذُ شَهْرَيْنِ. فَبَعْدَ هُبُوطِي عَلَى الشَّاطِئِ مُبَاشَرَةً، صَنَعْتُ مَا يُشْبِهُ التَّقْوِيمَ عَلَى شَجَرَةٍ كَبِيرَةٍ بِجَوَارِ الشَّاطِئِ، وَحَفَرْتُ كُلَّ يَوْمٍ كَحَطِّ مُسْتَقِيمٍ، ثُمَّ سَطَبْتُ عَلَى الْأَيَّامِ مَرَّةً وَاحِدَةً بَعْدَ انْتِهَاءِ كُلِّ أُسْبُوعٍ. فَقَدْ غَادَرْنَا الْبَرَازِيلَ فِي الْأَوَّلِ مِنْ سِبْتَمْبَرِ، وَأَعْلَمُ أَنَّنا ظَلَلْنَا فِي

الشَّهْرُ الْأَوَّلُ

الْبَحْرِ لِمُدَّةِ ثَلَاثِينَ يَوْمًا قَبْلَ ارْتِطَامِنَا بِهَذَا الْمُرْتَفَعِ الرَّمْلِيِّ، وَدَلَّتِ الشَّجَرَةُ عَلَيَّ أَنَّنِي ظَلَلْتُ
عَلَى الْجَزِيرَةِ لِشَهْرٍ وَاحِدٍ؛ لِذَا قُمْتُ بِعَمَلِ تَقْوِيمٍ جَدِيدٍ بِدَايَةِ ٣٠ سِبْتَمْبَرٍ، وَهُوَ يَوْمٌ
وُصُولِي إِلَى جَزِيرَتِي، وَسَيُعْتَبَرُ يَوْمَ ذِكْرِي وَوُصُولِي. فَأَصْبَحْتُ أَعْيُ الْيَوْمَ مِنَ الْغَدِ، الْجُمُعَةَ
مِنَ الْأَحَدِ، وَالْإِثْنَيْنِ مِنَ الْأَرْبَعَاءِ، وَكَانَ هَذَا أَيْضًا مِنْ دَوَاعِي رَاحَةِ بَالِي.

الحياة على جزيرة مهجورة

على مدى الأسابيع القليلة التالية، عملت جاهداً لتحسين مَحْيَمِي، حيثُ كان هناك حاجة إلى توسعته لتخزين جميع مؤنِّي. وبعد عدة محاولات صنعتُ منضدةً وكُرْسِيًّا؛ ممَّا أذهلني تمامًا وقتها، فلم أكن قطُّ أجد أعمال النجارة. وعلمني الوقت والمجهود أنني قادرٌ على البناء، أو النحت، أو عمل أيِّ شيءٍ طالما عرّمتُ على عمله. وربما كانت الأشياء التي صنعتُها تبدو غير مصفولة، لكنّها على الأقل كانت صالحةً للاستخدام، وكان هذا أهمَّ كثيرًا في رأيي.

اتَّسمتُ أيَّامِي الآن بروتين واضح؛ فأنا أخرجُ في الصُّباح، حتَّى زهاء الساعة الحادية عشرة، وكانت هذه الجولات للتمرين، ولكنّها كانت كذلك للصيد. ولأحظتُ وجودَ بعض الطيور البرية التي يمكنني أكلها، بالإضافة للماعز. وكان من المهمِّ بالنسبة لي الاستفادة من كلِّ جزءٍ من الحيوانات التي أصطادها؛ فاستخدمتُ جلودها، وأكلتُ لحومها، ولم أقتل أبدًا على سبيل الرياضة؛ فالبارود كان عزيزًا جدًّا، كما أن ضميري لم يكن ليَرْضَى بهذا على أيِّ حال.

كان الطقس حارًّا، فبعد جَوْلتي الطويلة في الصُّباح، عادةً ما كنتُ أغفو. وما إنَّ تبدأ الشمسُ في الهبوطِ، أقومُ بإعداد العشاءِ والبدء في العملِ على مشاريعي المختلفةِ والمُتنوعة؛ فصنعتُ شموعًا، وكنبتُ مذكراتي، ونحتُ أواني للطعام، وفعلتُ أيِّ شيءٍ ليَمِضِي الوقتُ.

وفي إحدى جَوْلاتي، سعدتُ باكتشافي لشجرة الخشب الحديدِي في الغابة.

قُلْتُ لِنَفْسِي: «مِثْلُ هَذَا الْحَشَبِ الْقَوِيِّ يُمَكِّنُنِي اسْتِخْدَامُهُ لِعَمَلِ مَجْرَافٍ، بَلْ حَتَّى لِعَمَلِ مَسَنٍّ لِلْمُسَاعَدَةِ فِي شَحْدِ أَدْوَاتِي.»

وَكَانَ حَشَبًا قَوِيًّا بِحَقِّ! اسْتَعْرَفْتُ سَاعَاتٍ طَوِيلَةً فِي تَقْطِيعِهِ بِفَأْسِي، كَيْ أَقْطَعَ وَلَوْ جُزْءًا صَغِيرًا مِنْ حَشَبِ الشَّجَرَةِ. وَلَكِنَّ الْأَدْوَاتِ الَّتِي صَنَعْتُهَا لَمْ يَكُنْ مِنْ السَّهْلِ الْاسْتِغْنَاءُ عَنْهَا فِي رَأْيِي، وَأَثْمَرْتُ كُلَّ جُهُودِي الْمُضْنِيَةِ.

انْقَضَى الْوَقْتُ؛ فَنِي غَمْضَةِ عَيْنٍ مَرًّا مَا يَزِيدُ عَنْ ثَلَاثَةِ شُهُورٍ وَأَنَا عَلَى الْجَزِيرَةِ، ثُمَّ حَلَّ الْمَوْسِمُ الْمُمْطِرُ. وَكَانَ الطَّقْسُ يُعْطِينِي إِشَارَاتٍ بِاحْتِمَالِيَّةِ حُلُولِ مَوْسِمِ مُمَطِّرٍ؛ لِذَا قَضَيْتُ وَقْتًا طَوِيلًا فِي الشُّهُورِ السَّابِقَةِ لَهُ مُحَاوَلًا بِنَاءِ غِطَاءٍ أَفْضَلَ لِمَا تُسَمَّى «حَيْمَتِي». وَسُرْعَانَ مَا تَحَوَّلَ الْهَيْكَلُ كُلُّهُ لِيَعْدُوَ بِنَاءً مُلَائِمًا، ذَا جُدْرَانٍ، وَبَابٍ، وَسَقْفٍ جَيِّدٍ مَتِينٍ. وَنَحَتُ الْأُلُوحَ الْحَشَبِيَّةَ لِلسَّقْفِ ثُمَّ اسْتَحْدَمْتُ سَعْفَ النَّخِيلِ كِمَادَةَ عَازِلَةٍ لِلْمَطَرِ. وَمَعَ هَذَا، فَكَانَ الْمَاءُ لَمْ يَزَلْ يَنْسَرِبُ فِي بَعْضِ اللَّيَالِي، وَحِينَهَا كُنْتُ أُوتِرُ النَّوْمَ فِي كَهْفِ التَّخْزِينِ!

وَمَنْ يَنَاطِرُ حَتَّى أَبْرِيْلَ عَمِلْتُ عَلَى تَحْصِينِ سِيَاحِي، فَكَلَّمَا أَصْبَحَ أَقْوَى اِزْدَادَ شُعُورِي بِالْأَمَانِ. وَأَضْفَتُ عَدَدًا مِنَ التَّحْسِينَاتِ الْآخَرَى لِمَنْزِلِي هَذَا الْمَوْسِمِ، وَعَمَّا قَرِيبٍ أَضْحَيْتُ مُسْتَرِيحًا أَيَّمَا رَاحَةٍ، فَأَضَاءَتْ لَيْالِي الشُّمُوعُ، وَكَانَ مَنْزِلِي جَافًا (فِي مُعْظَمِهِ)، وَلَدَيَّ شَيْبِي لِيَبْقَى بِرِفْقَتِي.

اسْتَيْقَظْتُ ذَاتَ صَبَاحٍ فِي ذَاتِ شَهْرِ أَبْرِيْلَ مَشْدُوهاً؛ إِذْ وَجَدْتُ أَنَّ بَعْضَ الْأَطْعَمَةِ التَّالِفَةِ الَّتِي أَلْفَيْتُ بِهَا بَعِيدًا أَنْبَتَتْ، فَكَانَتْ هُنَاكَ سِيْقَانٌ حَضْرَاءٌ رَائِعَةٌ فِي سَهْلِي. وَفَرِحْتُ بِاِكْتِشَافِي أَنَّهَا شَعِيرٌ وَأُرْزُ، وَكَذَلِكَ كَانَتْ الْمَحَاصِيلُ صَحِيَّةً تَمَامًا! وَتَذَكَّرْتُ إِلْقَائِي لِلْحُبُوبِ فِي كَافَةِ أَرْجَاءِ الْمَكَانِ لَكَيْ أُفْرِعَ الْحَقِيْبَةَ، حَيْثُ احْتَجَّتْ إِلَيْهَا لِأَحْرَنَ بِهَا بَارُودِي. وَبِالتَّأَكِيدِ الطَّبِيعَةُ مُذْهِلَةٌ! فَمَا كُنْتُ لِأَتَوَقَّعَ أَبَدًا أَنْ يَنْمُو طَعَامُ الدَّجَاجِ فِي مَرْجِي الْأَمَامِيِّ، وَلَكِنِّي فِي غَايَةِ السَّعَادَةِ الْآنَ بَعْدَ وُجُودِهِ.

وَبِالتَّأَكِيدِ، كَانَ شَهْرُ أَبْرِيْلَ مَلِيئًا بِالْمَفَاجَاتِ، لَكِنَّهَا لَيْسَتْ جَمِيعُهَا سَارَّةً. فَذَاتَ يَوْمٍ، بَيْنَمَا كُنْتُ فِي كَهْفِي أَصْنَفُ مَوْنِي، بَدَأَتْ الْأَرْضُ تَحْتَ قَدَمِي فِي الْإِهْتِرَازِ. وَكَانَ هُنَاكَ صَوْتُ تَصَدُّعِ عَالٍ، وَبَدَأَتْ الْأَحْجَارُ فِي النَّسَاقِطِ مِنْ حَوْلِي، وَكُنْتُ مَرْعُوبًا وَجَرِيْتُ

إِلَى الْخَارِجِ بِسُرْعَةٍ. وَاهْتَرَّتِ الْأَرْضُ مَرَّةً ثَانِيَةً، وَثَالِثَةً. وَمِثْلَمَا بَدَأَ سَرِيعًا، انْتَهَى سَرِيعًا. زِلْزَالٌ! قَرَأْتُ عَنْهُ فِي صِبَايَ، لَكِنِّي لَمْ أَشْهَدْ أَيَّ زِلْزَالٍ فِي حَيَاتِي قَطُّ. فَكَرْتُ: «حَسَنًا، أَتَمَنَّى أَلَّا يَحْدُثَ مِثْلُ هَذَا ثَانِيَةً أَبَدًا». وَعَدْتُ إِلَى مَنْزِلِي وَأَزْحْتُ الصُّخُورَ مِنْ كَهْفِ التَّخْرِينِ.

وَبِالرُّغْمِ مِنْ تَرَاجُعِ الْأَمْطَارِ بِحُلُولِ مَائُو، تَبِعَتِ الزُّلْزَالَ عَاصِفَةٌ عَاتِيَةٌ. وَفِي الصَّبَاحِ التَّالِيِ لِانْتِهَائِهَا، سَرْتُ فِي جَوْلَتِي الْمُعْتَادَةِ هَابِطًا نَحْوَ الشَّاطِئِ، وَكَانَ هُنَاكَ شَيْءٌ مَا عَلَى الشَّاطِئِ، وَلَمْ يَبْدُ كَأَعْشَابٍ بَحْرِيَّةٍ أَوْ أَحْشَابٍ طَافِيَةٍ مِمَّا اعْتَدْتُ رُؤْيَيْتَهُ هُنَاكَ بِالْأَسْفَلِ. فَقُلْتُ بِصَوْتِ عَالٍ بَيْنَمَا سَرْتُ نَحْوَ هَذَا الشَّيْءِ كَيْ أَرَاهُ عَنْ قُرْبٍ: «مَا هَذَا؟ عَجَبًا، إِنَّهَا السَّفِينَةُ!»

قَضَيْتُ النَّهَارَ فِي تَجْمِيعِ كُلِّ أَجْزَائِهَا وَحَمْلِهَا بَعِيدًا أَعْلَى الشَّاطِئِ. وَانْجَرَفَ بِرُؤْيِي آخَرَ مِنَ الْبَارُودِ إِلَى الشَّاطِئِ أَيْضًا، وَلَكِنَّ الْمِيَاهَ كَانَتْ قَدْ أَفْسَدَتْهُ. وَبَدَلًا مِنَ الْعُودَةِ لِمَنْزِلِي لِأَتَعَمَّ بِعَفْوَتِي الْمُعْتَادَةِ، قَضَيْتُ بَاقِيَ الْيَوْمِ فِي مَحَاوَلَةِ إِعَادَةِ بِنَاءِ السَّفِينَةِ، لَكِنْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ أَمَلٌ. وَمَعَ ذَلِكَ، قَرَّرْتُ الْإِحْتِفَاطَ بِجَمِيعِ أَجْزَائِهَا وَحَسْبُ، فَرُبَّمَا يُمَكِّنُ الْإِسْتِفَادَةَ مِنْهَا. وَاسْتَعْرَقَ مِنِّي تَفْكِيكُ السَّفِينَةِ بِالْكَامِلِ قُرَابَةَ الشَّهْرِ. وَبِحُلُولِ مُنْتَصَفِ يُونِيُو، كَانَتْ مُفَكَّكَةً لِأَجْزَاءٍ، وَأَخْفَيْتُ كُلَّ شَيْءٍ بِالْقُرْبِ مِنَ الشَّاطِئِ؛ فَلَا يُمَكِّنُكَ التَّخْلِي عَنْ الْحَذَرِ.

عَلَّمَنِي الْحَيَاةُ عَلَى الْجَزِيرَةِ عِدَّةَ دُرُوسٍ، وَلَمْ يَكُنْ أَوْلَاهَا مَا حَدَثَ فِي ذَاتِ شَهْرِ يُونِيُو. وَنَظَرًا لِأَنِّي كُنْتُ أَقْضِي وَقْتًا طَوِيلًا فِي الْأَسْفَلِ بِجِوَارِ الْمَاءِ كَيْ أَفْكَكَ السَّفِينَةَ، فَكُنْتُ هُنَاكَ حِينَ رَأَيْتُ سُلْحَفَاءَ، وَتَحَمَّسْتُ. فَبَعْدَ شُهُورٍ مِنْ أَكْلِ الْحَمَامِ وَالْمَاعِزِ، سَتَكُونُ السُّلْحَفَاءُ تَغْيِيرًا مُحِبَّبًا إِلَى النَّفْسِ. وَتَنَاوَلْتُ عَشَاءَ شَهِيًّا فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ. وَبَعْدَ مُرُورِ أَيَّامٍ وَأَيَّامٍ، مَرَضْتُ لِدَرَجَةٍ مُمِيتَةٍ. فَكُنْتُ مَحْمُومًا وَأَصَابَتْنِي تَقْلُصَاتُ رَهِيْبَةٍ فِي مَعْدَتِي، فَتَاهَ عَقْلِي وَأَخَذْتُ أَتَقَلَّبُ فِي فِرَاشِي، وَطَارَدْتُ لِيَالِي الْأَحْلَامِ الْمُرِيعَةِ، فَبَكَيْتُ وَبَكَيْتُ، مُشْتَاقًا لِأُمِّي وَأَبِي، وَاعْنَتُ قَرَارِي لِلذَّهَابِ لِلْبَحْرِ، وَاعْنَتُ هَجْرِي لِمَزْرَعَتِي. وَلَكِنَّ الْأَهْمَّ أَنِّي لَعْنْتُ الظُّرُوفَ الَّتِي أَلْفَتْ بِي فِي جَزِيرَةِ الْيَأْسِ تِلْكَ.

بَعْدَ ذَلِكَ انْتَهَى الْأَمْرُ، وَتَرَكَنِي الْمَرَضُ شَاعِرًا بِالِاضْطِرَابِ وَالضُّيْقِ. لِمَ حَدَّثَ لِي كُلُّ
هَذَا؟ وَكَيْفَ سَأَنْجُو مِنْ هَذِهِ الْمِحْنَةِ؟ وَلَكُمْ مِنَ الْوَقْتِ سَابِقِي هُنَا؟ وَهَلْ سَيَأْتِي أَحَدٌ
لِإِنْقَازِي؟ كَانَ جِسْمِي فِي غَايَةِ الْوَهْنِ، وَلَمْ أَسْتَعِدْ قُوَّتِي عَلَى مَدَى الْعَدِيدِ وَالْعَدِيدِ مِنَ
الْأَسَابِعِ.

جَزِيرَةُ الْاِكْتِشَافِ

عِنْدَمَا بَدَأْتُ فِي الشُّعُورِ بِالتَّحَسُّنِ قَرَّرْتُ اسْتِكْشَافَ الْجَزِيرَةِ كَمَا يَنْبَغِي، وَأَرَدْتُ التَّعَرُّفَ عَلَى مَا يُحِيطُ بِي، فَزَيْمًا يُسَاعِدُنِي التَّفَكِيرُ فِي الْجَزِيرَةِ عَلَى أَنَّهَا بَيْتِي وَلَيْسَ مَكَانًا عَلِقْتُ فِيهِ. وَحَلَّ الآنَ مَوْسِمُ الْجَفَافِ، وَعَزَمْتُ عَلَى الذَّهَابِ لِلْجَدُولِ حَيْثُ أُنْحَرْتُ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ فِي الطُّوفِ وَمَعِي مُؤْنِي مِنَ السَّفِينَةِ. وَبِمَجَرَّدِ وُصُولِي إِلَى هُنَاكَ، سِرْتُ بِطُولِ الْجَدُولِ حَتَّى تَمَلَّكَنِي التَّعَبُ وَعُدْتُ أَدْرَاجِي. وَكَانَ هُنَاكَ الْعَدِيدُ مِنَ النَّبَاتَاتِ الَّتِي لَمْ أَعْرِفْهَا؛ لِذَا أَخَذْتُ مَعِي عَيْنَاتٍ لِأَعُودَ بِهَا إِلَى الْمُخِيمِ، وَوَجَدْتُ أَيْضًا نَبَاتَاتٍ أَعْرِفُهَا، مِثْلَ الْأَوَّةِ. وَكُنْتُ فَخُورًا جِدًّا بِاِكْتِشَافَاتِي!

وَفِي الْيَوْمِ التَّالِيِ، سِرْتُ لِمَسَافَةٍ أُبْعَدَ، وَتَحَوَّلَتِ الْأَرْضُ الْخَضْرَاءُ الْمُزْدَهَرَةُ إِلَى غَابَةِ خَشَبِيَّةٍ كَثِيفَةٍ. فَكَانَ يُوجَدُ أَشْجَارٌ كَبِيرَةٌ مُثْقَلَةٌ بِالْفَاكِهَةِ النَّاصِجَةِ، مِنْهَا الشَّمَامُ وَالْكَرْمَةُ! وَلَمْ أَكُنْ أَصَدِّقُ مَدَى وَفَرَةِ الْأَشْجَارِ وَالْكَرْمَةِ، فَقَرَّرْتُ التَّخِيمَ فِي الْبُسْتَانِ لِقَضَاءِ اللَّيْلِ؛ لِذَا صَعِدْتُ إِلَى أَعْلَى شَجَرَةٍ جَيِّدَةٍ وَمَتِينَةٍ وَعَرَفْتُ فِي النَّوْمِ.

كَانَ الصَّبَاحُ مُشْرِقًا وَصَافِيًا. اتَّبَعْتُ نَفْسَ الْمَسَارِ وَأَكْمَلْتُ سَيْرًا جَهَةَ الشَّمَالِ، وَهُنَاكَ وَجَدْتُ فَتْحَةً لِمَسَاحَةٍ نَضْرَةٍ، وَخَضْرَاءَ، وَمُزْدَهَرَةً مِنَ الْأَرْضِ، فَكَانَتْ رَائِعَةً، وَبَدَتْ كَأَنَّهَا حَدِيقَةٌ مَرْوَعَةٌ. وَكَانَتْ أَشْجَارُ اللَّيْمِ وَاللَّيْمُونِ مُزْدَهَرَةً، مِثْلَهَا مِثْلُ شَجَرِ الشَّمَامِ وَالْعَنْبِ. وَكَانَ هُنَاكَ أَيْضًا أَشْجَارُ الْكَأَاوِ وَالْبُرْتَقَالِ، لَكِنَّهَا لَمْ تَكُنْ مُثْمِرَةً. وَقَطَفْتُ مِنَ الْفَاكِهَةِ الطَّازِجَةِ قَدْرًا مَا أَمَكَّنَنِي حَمْلَهُ.

عُدْتُ بِاتِّجَاهِ أَوَّلِ بُسْتَانَ وَجَدْتُهُ، وَقَرَّرْتُ أَخَذَ بَعْضَ الْعِنَبِ لِلْبَيْتِ أَيْضًا. وَأَخَذْتُ وَقْتًا طَوِيلًا جِدًّا كَيْ أَرْجِعَ لِلْمَحِيْمِ. وَعِنْدَ وُصُولِي، أَخَذَ شَيْبِي يُنْبِحُ؛ فَكَانَ مَسْرُورًا جِدًّا لِرُؤْيَيْتِي. فَاجْمَالًا، كُنْتُ غَائِبًا لِثَلَاثَةِ أَيَّامٍ!

شَعَرْتُ بِخَبِيَّةٍ أَمَلٍ حِينَ اِكْتَشَفْتُ أَنَّ الْعِنَبَ اِنْسَحَقَ فِي طَرِيقِي إِلَى الْبَيْتِ، إِلَّا أَنَّ اللَّيْمَ وَاللَّيْمُونَ كَانَا صَالِحِينَ، فَصَبَبْتُ مَاءً حَسَنًا وَبَارِدًا فِي إِنَاءٍ، ثُمَّ أَضَفْتُ الْفَاكِهَةَ، فَكَانَ رَائِعًا بِحَقٍّ.

وَعِنْدَمَا انْطَلَقْتُ فِي الْيَوْمِ التَّالِيِ، حَمَلْتُ مَعِي حَقِيْبَتَيْنِ كَيْ أَتِمَّكَنَّ مِنْ جَمْعِ الْمَزِيدِ مِنَ الْفَاكِهَةِ. وَبَدَلًا مِنْ أَخَذِ الْعِنَبِ لِلْبَيْتِ، قَطَفْتُ الْعِنَبَ وَعَلَّقْتُهُ عَلَى أَغْصَانِ الْأَشْجَارِ الْأُخْرَى حَتَّى يَجِفَّ لِيُصْبِحَ زَبِيْبًا، ثُمَّ مَلَأْتُ حَقِيْبَتِي بِالْمَزِيدِ مِنَ الْفَاكِهَةِ وَاتَّجَهْتُ عَائِدًا إِلَى مُحَيِّمِي.

وَنَضَحَ زَبِيْبِي فَاصْبَحَ رَائِعًا وَلَذِيذَ الْمَذَاقِ. وَأَقَمْتُ مَاوِي صَغِيرًا فِي الْوَادِي، وَأَسَمَيْتُهُ مَنْزِلِي الصِّيْفِيِّ!

وَمَضَى الْآنَ عَلَى وُجُودِي فِي الْجَزِيرَةِ سَنَةً كَامِلَةً. وَكَانَ يَوْمَ الذِّكْرِى السَّنَوِيَّةِ تَعْيِيسًا فِي رَأْيِي. وَقَضَيْتُ مُعْظَمَهُ مُفَكِّرًا فِي كُلِّ مَا حَدَثَ. وَآخِرُ جُمْلَةٍ كَتَبْتُهَا فِي يَوْمِيَّاتِي لِهَذِهِ السَّنَةِ كَانَتْ: «لِكُمْ مِنَ الْوَقْتِ سَاطِلٌ بَاقِيًا هُنَا؟»

روبسون المزارع

بَدَأْتُ سَنَتِي الثَّانِيَةَ عَلَى الْجَزِيرَةِ. وَعَلَى مَدَى الْإِثْنَيْ عَشَرَ شَهْرًا الْمَاضِيَةَ كُنْتُ قَدْ عَلِمْتُ الْكَثِيرَ عَنْهَا. فَبَدَلًا مِنَ الْمَوَاسِمِ الْأَرْبَعَةِ الْمُحَدَّدَةِ الَّتِي عَرَفْتُهَا فِي بَلَدِي فِي إِنْجِلْتْرَا، كَانَ لِلطَّقْسِ هُنَا دَوْرَةٌ مُخْتَلِفَةٌ تَمَامًا؛ فَهَذَا مَوْسِمَانِ فَقَطْ: أَحَدُهُمَا مُمَطَّرٌ وَالْآخَرُ جَافٌ. فَيُمْكِنُ أَنْ تُمْطَرَ لِثَلَاثَةِ شُهُورٍ ثُمَّ تَجِفُّ لِنَفْسِ الْفِتْرَةِ الزَّمْنِيَّةِ. وَعِلْمِي بِهِذَا كَانَ يَعْنِي أَنَّ بَوْسَعِي الْبَدَاءَ فِي ذَلِكَ الْحِينِ فِي التَّحْضِيرِ لِلشُّهُورِ الْمُمَطَّرَةِ كَيْ لَا أُضْطَرَّ لِقَضَاءِ الْكَثِيرِ مِنَ الْوَقْتِ فِي الْخَارِجِ.

وَكَانَ ذَلِكَ فِي قُرَابَةِ الْوَقْتِ الَّذِي حَاوَلْتُ فِيهِ إِنْبَاتَ بَعْضِ الْمَحَاصِيلِ، فَزَرَعْتُ بَعْضَ الشَّعِيرِ وَالْأُرْزِ الَّذِي نَمَا فِي سَاحَتِي الْأَمَامِيَّةِ سَابِقًا فِي السَّنَةِ الْمَاضِيَةِ كَيْ أَحْصَلَ عَلَى بُدُورِهَا. وَبَاءَتْ مُحَاوَلَتِي الْأُولَى لِإِنْمَاءِ أَيِّ شَيْءٍ مُفِيدٍ بِالْفِشْلِ التَّامِّ، فَلَمْ أَدْرِ كَيْفَ سَيُؤَثِّرُ مَوْسِمَا الْجَزِيرَةِ، الْمُمَطَّرُ وَالْجَافُ، عَلَى الْمَحَاصِيلِ؛ وَلِذَا زَرَعْتُ بُدُورِي الْأُولَى بَعْدَ الْمَوْسِمِ الْمُمَطَّرِ مُبَاشَرَةً. حَسَنًا، كَانَ هَذَا خَطَأً! فَلَمْ أَفْكَرْ فِي مَدَى الْجَذِبِ الْفِعْلِيِّ فِي فَصْلِ الْجَفَافِ! وَلَكِنْ كَانَ مِنَ الرَّائِعِ أَنَّي لَمْ أَسْتَحْدِمْ كُلَّ الْبُدُورِ الَّتِي لَدَيَّ، فَأَبْقَيْتُ الْكَثِيرَ تَحْسَبًا لِاحْتِيَاجِي مُحَاوَلَةَ الزَّرَاعَةِ مُجَدِّدًا.

وَالآنَ، بَعْدَمَا عَلِمْتُ أَنَّ بُدُورِي تَحْتَاجُ جَوًّا رَطْبًا، انْتَهَرْتُ كَيْ أَرْزَعَهَا بِحُلُولِ الْمَوْسِمِ الْمُمَطَّرِ الْقَادِمِ، وَفَكَّرْتُ كَذَلِكَ أَنَّهُ رَبَّمَا لَا يَكُونُ مِنَ الْمُسْتَحْسِنِ أَنْ أَرْزَعَهَا فِي سَاحَتِي، فَالْفَاكِهَةُ تَنْمُو عَلَى نَحْوِ جَيِّدٍ جَدًّا فِي الْوَادِي؛ لِذَا قَرَّرْتُ أَنَّ هَذِهِ التُّرْبَةُ هِيَ الْمُنَاسِبَةُ لِمَحَاصِيلِي.

وَنَجَحْتُ فِي مُحَاوَلَتِي الثَّانِيَةِ! نَمَتِ الْمَحَاصِيلُ صَاحِحَةً وَقَوِيَّةً، وَلِأَنَّهُ كَانَ هُنَاكَ مَوْسِمَانِ مَطِيرَانِ فِي الْعَامِ، عَرَفْتُ أَنَّي أَسْتَطِيعُ الْإِعْتِمَادَ عَلَى الْأَقْلَى عَلَى مَحْصُولَيْنِ مُخْتَلَفَيْنِ.

وَفِي أَثْنَاءِ الْمَطَرِ، كُنْتُ أَبْقَى فِي الدَّاخلِ، وَأَهْلًا مُنْشَغَلًا بِمُحَاوَلَةِ صُنْعِ أَشْيَاءَ مُفِيدَةٍ. أَوْلًا، حَاوَلْتُ عَمَلَ سَلَّةٍ، فَعِنْدَمَا كُنْتُ صَبِيًّا، ذَهَبْتُ مَعَ وَالِدِي لِمُشَاهَدَةِ صَانِعِ السَّلَالِ فِي الْمَدِينَةِ؛ لِذَا كُنْتُ أَعْرِفُ عَلَى نَحْوِ يَشْوَبُهُ الْعُمُوضُ كَيْفِيَّةَ عَمَلِ السَّلَّةِ، لَكِنْ تَحْوِيلَ هَذِهِ الْأَفْكَارِ إِلَى حَيْزِ التَّنْفِيدِ كَانَ قِصَّةً مُخْتَلَفَةً بِالْكَامِلِ.

وَقَبْلَ بَدْءِ الْأَمْطَارِ، اسْتَخْلَصْتُ بَعْضَ الْخَشَبِ مِنْ شَجَرِ النَّخِيلِ الْمَزْرُوعِ بِجَوَارِ مَنْزِلِي الصَّيْفِيِّ. وَكَانَتْ هَذِهِ السِّيْقَانِ الْخَشَبِيَّةُ مُوجُودَةً بِجَوَارِ النَّارِ، فَجَعْتُ عَلَى مَدَى أَشْهُرٍ. وَكَانَتْ هَذِهِ هِيَ الْمَادَّةُ الْخَامَ الَّتِي أَرَدْتُ اسْتِخْدَامَهَا لِعَمَلِ السَّلَالِ.

بَدَتِ الْأَعْدَادُ الْقَلِيلَةُ الْأُولَى مِنَ السَّلَالِ الَّتِي نَسَجْتُهَا فِي غَايَةِ الْبِشَاعَةِ، فَكَانَتْ كُلُّهَا غَيْرَ مُتَنَاسِقَةٍ وَكَانَ نَسَجُهَا غَيْرَ مُتَنَاسِبٍ، لَكِنِّي لَمْ أَبَالِ بِشَكْلِهَا، فَاسْتَخْدَمْتُهَا وَحَسَبُ عَلَى أَيِّ حَالٍ. وَأَحْرَزْتُ تَقْدَمًا فَكَانَتْ كُلُّ سَلَّةٍ جَدِيدَةٍ أَفْضَلَ مِنْ سَابِقَتِهَا، وَاسْتَفَدْتُ مِنْهَا بِالتَّكْيِدِ. فَاسْتَخْدَمْتُهَا لِحَمْلِ الْبُذُورِ، وَلِتَحْزِينِ بَضَاعَتِي، وَلِنَقْلِ الْمُؤْنِ مِنْ مَكَانٍ إِلَى آخَرَ. انْتَهَى الْمَوْسِمُ الْمُمْطَرُ، وَعَادَتِ الْأَيَّامُ الْمُشْمِسَةُ مِنْ جَدِيدٍ، وَبَدَأَتِ الْخَوَاطِرُ تَجُولُ فِي عَقْلِي، وَبَدَأْتُ أَنَا فِي اسْتِكْشَافِ الْمَرِيدِ فِي الْجَزِيرَةِ. وَفِي خِلَالِ أُسْبُوعٍ مِنَ الطَّقْسِ الْجَيِّدِ، انْطَلَقْتُ أَنَا وَشِيبِي لِبَيْتِنَا الصَّيْفِيِّ.

كَانَتْ وَجْهَتِي هِيَ شَاطِئُ الْبَحْرِ الْوَاقِعَ عَلَى الْجَانِبِ الْآخَرَ مِنَ الْجَزِيرَةِ، فَوَقَفْتُ عَلَى أَعْلَى التَّلِّ وَنَظَرْتُ مُتَمَعِّنًا فِي الْأَرْجَاءِ لِأَكْتِشَافِ أَفْضَلِ الطَّرِيقِ لِلذَّهَابِ حَيْثُ أُرِيدُ. فَهَذَا التَّلُّ كَانَ بِالْفِعْلِ أَعْلَى نَسْبِيًّا مِنْ أَيِّ أَرْضٍ قَرِيبَةٍ مِنْ أَيِّ مَنْزِلِي، وَلِأَوَّلِ مَرَّةٍ، رَأَيْتُ هُنَاكَ أَرْضًا تَمْتَدُّ لِنَحْوِ عِشْرِينَ فَرَسَخًا فِي الْبَحْرِ.

فَرَاوَدَنِي التَّفَكِيرُ: «أَيْنَ أَنَا؟ وَمَا هَذِهِ الْأَرْضُ؟» بَحَثْتُ فِي عَقْلِي عَنْ أَيِّ شَيْءٍ قَدْ أَتَعَرَّفْتُ عَلَيْهِ، لَكِنْ بَلَ جَدْوَى، فَلَمْ تَكُنْ لَدَيَّ أَيُّ فِكْرَةٍ عَنْهَا. وَأَقْرَبُ مَا اسْتَطَعْتُ التَّفَكِيرَ فِيهِ هُوَ وُجُودِي عَلَى جَزِيرَةٍ فِي الْجُزءِ الْإِسْبَانِيِّ مِنَ الْأَمْرِيكَتَيْنِ. وَلَوْ كَانَ هَذَا صَاحِحًا، فَلَأَمْرٌ خَطِيرٌ جِدًّا، فَالرَّجَالُ الَّذِينَ يَعِيشُونَ عَلَى هَذِهِ الْأَرْضِ غَيْرُ وَدُودِينَ جِدًّا. فَسَمِعْتُ

عَنْهُمْ الْكَثِيرَ مِنَ الْأَشْيَاءِ الْمُرْعَبَةِ مِنْ بَحَّارَةِ آخِرِينَ فِي رِحْلَاتِي؛ فَهُمْ لَا يُحِبُّونَ الْغُرَبَاءَ
بَنَاتًا وَيَحَاوِلُونَ إِبْعَادَ أَيِّ شَخْصٍ عَنْ جُزْرِهِمْ.

لَكِنِّي لَمْ أَدْعُ هَذِهِ الْأَفْكَارَ الْمُقْبِضَةَ تُخِيفُنِي، فَأَنَا لَمْ أَرِ قَطُّ إِنْسَانًا آخَرَ عَلَى
جَزِيرَتِي؛ لِذَا كُنْتُ أَمِنًا حِينَيْدًا. وَأَنْطَلَقْتُ أَنَا وَشِيبِي فِي مُغَامَرَتِنَا الصَّغِيرَةِ، وَرَبَّمَا كَانَ
سَبَبُ اضْطِحَابِي لَهُ هُوَ الْإِسْتِمَاعُ وَحَسْبُ إِلَى وَقَعِ صَوْتِي، فَتَحَدَّثْتُ وَتَحَدَّثْتُ إِلَى الْكَلْبِ،
وَأَحْبَرْتُهُ كُلَّ شَيْءٍ عَنِ حَيَاتِي، وَعَنْ خُطْطِي، وَعَنْ مَكَانِي قَبْلَ أَنْ أَهْبِطَ عَلَى الْجَزِيرَةِ مَعَهُ.
وَكَانَ يَخْبُ بِجَوَارِي، سَعِيدًا أَيَّمَا سَعَادَةٍ.

كَانَ الْجَانِبُ الْأُخْرَى مِنَ الْجَزِيرَةِ جَمِيلًا جَدًّا، فَهَنَّاكَ بَبَغَاوَاتٍ عَلَى الْأَشْجَارِ وَالْعَدِيدِ
مِنَ الْحَيَوَانَاتِ الْمُثِيرَةِ. فَفَرَرْتُ أَخَذَ بَبَغَاءٍ لِلْمَنْزِلِ كَطَيْرِ أَلَيْفٍ، وَأَسْمَيْتُهُ بُولَ.

قَضَيْتُ الْعَدِيدَ مِنَ اللَّيَالِي بَعِيدًا عَنِ الْمَنْزِلِ فِي تِلْكَ الرَّحْلَةِ. وَكَانَ وَقْتًا بَهِيجًا وَمُمْتِعًا،
بِاسْتِثْنَاءِ الْأَيَّامِ الْقَلِيلَةِ الَّتِي قَضَيْتُهَا أَنَا وَشِيبِي تَائِهَيْنِ فِي وَادٍ شَاسِعٍ. فَكَمْ يَكُونُ الْبَيْتُ
رَائِعًا عِنْدَمَا تَكُونُ بَعِيدًا! مَتَّعْتُ نَظْرِي بِكُلِّ شَيْءٍ! وَحَتَّى سِلَالِي غَرِيبَةً الشَّكْلِ كَانَتْ
تَرْسُمُ الْبَسْمَةَ عَلَى وَجْهِي.

قُلْتُ وَأَنَا أَسْقُطُ لَاجِئًا إِلَى رَاحَةِ أَرْجُوحَتِي الشَّبَكِيَّةِ: «أِهْ يَا شِيبِي، مَنَزِلِي الْعَزِيزِ.»
وَكَانَتْ هَذِهِ لَحْظَةً هَامَّةً، فَبَيْنَمَا كُنْتُ رَاقِدًا، أُرْتَشَفُ الْمِيَاهَ بِالْفَاكِهَةِ، وَأَتَأَرْجِحُ حَبِيئَةً
وَذَهَابًا عَلَى أَرْجُوحَتِي، تَوَقَّفْتُ عَنِ الشُّعُورِ بِالْأَسَى عَلَى نَفْسِي. أَجَلْ، كُنْتُ عَالِقًا عَلَى هَذِهِ
الْجَزِيرَةِ. وَأَجَلْ، كُنْتُ وَحِيدًا تَمَامًا. وَهَذَا حَقِيقِي، فَيَا لَهَا مِنْ حَيَاةٍ شَاقَّةٍ، لَكِنَّهَا كَذَلِكَ
حَيَاةٌ شَائِقَةٌ، فَكُنْتُ مُمْتَنًّا أَنْبِي عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ وَأَنْبِي نَجُوتٍ مِنْ تَحْطُمِ السَّفِينَةِ.

الفصل الثامن عشر

وَتَسْتَمِرُّ الْحَيَاةُ

فِي سَنَتِي الثَّالِثَةِ عَلَى الْجَزِيرَةِ، بَدَأَتْ حَيَاتِي الْيَوْمِيَّةُ تَأْخُذُ شَكْلًا مُحَدَّدًا؛ فَكُنْتُ مُنْشَغِلًا بِالصَّيْدِ وَالطَّهْيِ فِي صَبَاحِ كُلِّ يَوْمٍ، تَمَامًا مِثْلَمَا كُنْتُ أَفْعَلُ كُلَّ صَبَاحٍ طَوَالَ السَّنَتَيْنِ الْمَاضِيَتَيْنِ. وَكُنْتُ أَقْضِي فِتْرَاتٍ بَعْدَ الظَّهْرِ فِي الْعَمَلِ عَلَى مَشَارِيعِ، كِبْنَاءِ الْأَرْفَفِ وَتَحْسِينِ مَنْزِلِي كِلَيْهِمَا.

كُنْتُ أَتَّجِهُ فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ إِلَى وَادِيٍّ وَأَتَفَقَّدُ مَحَاصِيلِي، وَكَانَتْ بِخَيْرِ حَالٍ، بِالرَّغْمِ مِنْ التِّفَاتِ الطُّيُورِ وَالْأَرَانِبِ الْبَرِّيَّةِ مِنْ حَوْلِهَا إِلَيْهَا؛ وَلَكِنِّي أَحِلُّ مُشْكَلَةَ الطُّيُورِ قُمْتُ بِتَعْلِيْقِ رِيْشٍ فِي كَافَةِ الْأَرْجَاءِ لِإِحَافَتِهَا، وَلِحَلِّ مُشْكَلَةِ الْأَرَانِبِ بَنَيْتُ سِيَاجًا حَوْلَ مَحَاصِيلِي كَيْ لَا تَتَمَكَّنَ الْأَرَانِبُ الْبَرِّيَّةُ مِنَ الدُّخُولِ. وَنَجَحَ كِلَا الْحَلَّتَيْنِ، وَسَرِيعًا أَصْبَحْتُ الْمَحَاصِيلُ فِي مَأْمَنِ مِنَ الْحَيَاةِ الْبَرِّيَّةِ فِي الْمِنْطَقَةِ.

كَانَ الْحَصَادُ هَذَا الْعَامَ هَزِيلًا؛ لِذَا قَرَّرْتُ إِعَادَةَ إِنْبَاتِ الْحُبُوبِ الَّتِي زَرَعْتُهَا مِنْ قَبْلُ. وَكَانَ مِنْ دَوَاعِي شُعُورِي بِالسُّرُورِ فِي حَيَاتِي الْقَدِيمَةِ وَالَّذِي اشْتَهَيْتُ بِشِدَّةِ الْحُصُولِ عَلَيْهِ هُوَ الْخُبْزُ. وَلَكِنْ كَانَ عَلَيَّ التَّأَكُّدُ مِنْ تَوَافُرِ الشَّعِيرِ وَالْأُرْزِ بِمَا يَكْفِي لِتَحْوِيلِ هَذَا الْحَلْمِ لِحَقِيقَةٍ.

وَعِنْدَمَا بَدَأَتْ الْأَمْطَارُ فِي الْهُطُولِ، كَالْمُعْتَادِ، مَكَّنْتُ فِي الدَّاخِلِ قَدْرَ الْمُسْتَطَاعِ، وَقَضَيْتُ بِضَعَّةٍ أَسَابِيعَ جَمِيلَةٍ فِي مُحَاوَلَةِ تَعْلِيمِ بُولِ الْبَبْغَاءِ التَّحَدُّثِ، وَتَعَلَّمُ فِي النِّهَايَةِ قَوْلَ كَلِمَاتٍ وَجَمَلٍ قَلِيلَةٍ.

وَكَذَلِكَ كَانَ هَذَا الْمَوْسِمُ بِدَايَةِ صُنْعِي الْفَخَّارِ، فَهَنَّاكَ كَمِيَّةً وَافِرَةً مِنَ الصَّلْصَالِ الطَّبِيعِيِّ عَلَى الْجَزِيرَةِ. عَمِلْتُ عِدَّةَ مُحَاوَلَاتٍ لِإِحْمَاءِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي شَكَّلْتُهَا فِي النَّارِ، وَلَكِنَّهَا فِي كُلِّ مَرَّةٍ كَانَتْ تَخْرُجُ مَكْسُورَةً.

وَتَسَاءَلْتُ: «مَا الْخَطَأُ الَّذِي أَفْعَلُهُ؟»

جَرَّبْتُهَا عَلَى أَنْوَاعِ حَرَارَةٍ مُخْتَلِفَةٍ. وَسَرِيعًا، عَرَفْتُ أَنَّهَا لَا تَنْكَسِرُ عِنْدَ وَضْعِهَا عَلَى الْجَمْرِ، بَدَلًا مِنْ وَضْعِهَا مُبَاشَرَةً عَلَى النَّارِ. وَمِثْلَ سَلَالِي، كَانَتْ السُّلْطَانِيَّاتُ بَعِيدَةً تَمَامًا عَنِ الْإِتْقَانِ. صَنَعْتُ الْعَدِيدَ مِنَ الْقُدُورِ لِلطَّبْخِ وَبَدَأْتُ أَسْتَمْتِعُ بِنَوْعِ وَجَبَاتِ الْعِشَاءِ، مِثْلَ الْيَخَنَةِ وَالْمَرْقِ! وَيَا لَهُ مِنْ تَغْيِيرٍ فِي وَجَبَاتِي الْمُعْتَادَةِ بَعْدَ أَنْ كُنْتُ أَتَنَاوَلُ اللَّحْمَ الْمَشْوِيَّ عَلَى النَّارِ.

فِي هَذِهِ السَّنَةِ، حَقَّقَ حَصَادِي الثَّانِي أَيْضًا النَّجَاحَ، وَأَصْبَحَ لَدَيَّ وَقْتٌ مِمَّا يَكْفِي مِنَ الْبُدُورِ فِي الْمَخْرَنِ، فَشَعَرْتُ بِالْإِطْمِئْنَانِ لِ مُحَاوَلَةِ صُنْعِ الْخُبْزِ. وَكَانَ الْبَسْكَوَيْتُ الَّذِي أَحْضَرْتُهُ مِنَ السَّفِينَةِ قَدْ نَعِدَ مُنْذُ زَمَنٍ، وَأَشْنَهَيْتُ شَيْئًا مِثْلَهُ. فَأَوَّلًا، نَحْتُ سُلْطَانِيَّةً كَبِيرَةً مِنْ قِطْعَةِ الْخَشَبِ الْحَدِيدِيِّ الَّتِي قَطَعْتُهَا مُنْذُ مَا يَقْرُبُ مِنْ سَنَتَيْنِ كَامِلَتَيْنِ. وَثَانِيًا، وَضَعْتُ بَعْضًا مِنْ حِنْطِي فِي السُّلْطَانِيَّةِ وَحَاوَلْتُ طَحْنَهَا لِتُصْبِحَ طَحِينًا. وَبَعْدَ هَذَا، غَرَبَلْتُ الطَّحِينَ بِاسْتِخْدَامِ مَلَابَسٍ قَدِيمَةٍ، عَلَى أَمَلٍ فَصَلِ الْقَشْرَةَ مِنْهَا.

وَجِينِيذٍ أَضْحَى لَدَيَّ الدَّقِيقُ، وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ مَعِيَ خَمِيرَةٌ لِنَفْسِ الْعَجِينِ وَانْتِفَاحِهِ، وَكَذَلِكَ لَمْ يَكُنْ لَدَيَّ أَيُّ زُبْدٍ لِإِضَافَةِ نَكْهَةٍ أَوْ شَحْمٍ لِأَخْبِزَ بِهِ. لِذَا، بِبَسَاطَةٍ خَلَطْتُ الدَّقِيقَ بِالْمَاءِ وَتَمَنَيْتُ الْحُصُولَ عَلَى أَفْضَلِ نَتِيجَةٍ. وَكَانَتِ الْإِرْغَفَةُ الَّتِي صَنَعْتُهَا أَفْضَلَ قَلِيلًا مِنَ الْخُبْزِ الْمَسْطَحِ، لَكِنَّهُ كَانَ لَدِيدًا.

وَاسْتَمَرَّ نَجَاحُ الْمَحَاصِيلِ. وَلَمْ أَرُدْ إِتْلَافَ أَيِّ مِنَ الْبُدُورِ؛ لِذَا بَدَأْتُ بِالزَّرَاعَةِ مَرَّةً وَاحِدَةً فَقَطْ فِي الْعَامِ. وَكُنْتُ أَعْرِفُ كَمَّ الْبُدُورِ الَّتِي أَحْتَاجُهَا، وَكَمَّ الدَّقِيقِ الَّذِي يُمْكِنُنِي عَمَلُهُ وَاسْتِخْدَامُهُ بِالْفِعْلِ؛ فَلَمْ أَرْغَبْ فِي إِهْدَارِ أَيِّ شَيْءٍ.

قَارِبٌ

فِي شَهْرِ سِبْتَمْبَرِ الَّذِي بَدَأَتْ بِهِ سَنَتِي الرَّابِعَةَ عَلَى الْجَزِيرَةِ، فَكَرْتُ مَلِيًّا وَجَدِيًّا فِي الْإِنْتِقَالِ إِلَى الْجَانِبِ الْأَخْرَ مِنْ الْجَزِيرَةِ. فَلَمْ أَشُكْ كَثِيرًا فِي أَنَّهُ كَانَ أَجْمَلَ بِكَثِيرٍ مِنَ الْمَكَانِ الَّذِي قَرَّرْتُ الْإِسْتِقْرَارَ فِيهِ، وَدَفَعْتَنِي إِلَى ذَلِكَ احْتِمَالِيَّةٌ رُؤْيِي لِلأَرْضِ مِنْ هُنَاكَ. وَجَعَلَنِي ذَلِكَ أَوْدُ الْهُرُوبِ. وَتَذَكَّرْتُ قُصُورِي الْيَافِعَ وَمَرَكَبَنَا وَتَمَنَيْتُ لَوْ كَانَ بِحَوْرَتِي ذَاتُ الْقَارِبِ عَلَى الْجَزِيرَةِ. فَكَمْ كُنْتُ سَاقِطِعٌ مِنْ مَسَافَةٍ!

وَبِالرُّغْمِ مِنْ هَذَا الْحَنِينِ لِلْعُودَةِ إِلَى الْحَضَارَةِ، كُنْتُ خَائِفًا أَيضًا مِنْ مُغَادَرَةِ الْجَزِيرَةِ. فَمَاذَا لَوْ انْتَهَى بِي الْمَطَافُ فِي مَكَانٍ أَسْوَأَ؟ وَكَذَلِكَ، مَضَى عَلَى وَجُودِي عَلَى الْجَزِيرَةِ فَتْرَةٌ طَوِيلَةٌ وَلَمْ أَرْ خِلَالَهَا عَلَى الْإِطْلَاقِ إِنْسَانًا آخَرَ. وَبِالْمِثْلِ لَمْ أَرْ أَيَّ شَيْءٍ. فَقُلْتُ لِنَفْسِي: «أَنْتِ تَعْرِفُ بِالتَّجْرِبَةِ يَا رُوبِنْسُونُ أَنَّ الْأَسْوَأَ يَحْدُثُ فِيمَا يَبْدُو دَائِمًا عِنْدَمَا تُغَامِرُ بَعِيدًا عَنِ مَوْطِنِكَ.» لَا، لَنْ أُنْقَلَ مُخَيَّمِي؛ فَهُوَ آمِنٌ وَمَرِيحٌ، وَيَجِبُ عَلَيَّ الْبَقَاءُ فِي مَكَانِي فِي الْوَقْتِ الْحَالِي.

وَهَذَا لَمْ يَكُنْ يَعْنِي أَنِّي تَوَقَّفْتُ عَنِ التَّفَكُّيرِ فِي مُغَادَرَةِ الْجَزِيرَةِ، فَأَرَدْتُ بِشِدَّةٍ الْحُصُولَ عَلَى قَارِبٍ. وَفِي حِينٍ لَا زَالَتْ أَجْزَاءُ سَفِينَتِنَا مُحَبَّأَةً فِي الْأَسْفَلِ بِجَوَارِ الشَّاطِئِ، فَرُبَّمَا يَكُونُ هُنَاكَ سَبِيلٌ لِإِصْلَاحِهَا فِي النِّهَائِيَّةِ.

حَسَنًا، كَانَتْ هَذِهِ الْفِكْرَةُ حَمَقَاءً. فَبَعْدَ أَسَابِيحٍ مِنَ الْعَمَلِ الشَّاقِّ، أُجْبِرْتُ عَلَى الْوُصُولِ لِذَاتِ النَّتِيجَةِ؛ فَلَا يُمْكِنُ إِصْلَاحُ هَذَا الْقَارِبِ!

إِلَّا أَنَّنِي ظَلَلْتُ بِحَاجَةٍ لِأَنْ أُمْتَلِكَ قَارِبًا. فَحَسَمْتُ أَمْرِي، وَقُلْتُ بِصَوْتِ عَالٍ: «عَلَيَّ فَقَطْ أَنْ أَصْنَعَ قَارِبًا!»

وَمَرَّةً أُخْرَى، يَا لَهَا مِنْ حُطَّةٍ حَمَقَاءَ! فَلَمْ أَفْكَرْ بِتَمَعْنٍ فِيهَا قَبْلَ أَنْ أَبْدَأَ. فَضَيْتُ
أَسَابِيعَ فِي الْغَابَةِ لِأَقْطَعِ الشَّجَرَةَ الْمُنَاسِبَةَ، وَبِمَجَرَّدِ سُقُوطِهَا، قَضَيْتُ مَا يَقْرُبُ مِنْ أَرْبَعَةِ
أَشْهُرٍ فِي تَشْكِيلِ الْقَاعِ وَالْحَفْرِ مِنَ الدَّاخِلِ. وَعِنْدَمَا انْتَهَيْتُ مِنْ هَذَا كُلِّهِ، أَضْحَى لَدَيَّ
زُورُقٌ مُتَوَسِّطُ الْحَجْمِ. وَبَقِيَتْ مُشْكَلَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَطُ؛ كَيْفَ يُمَكِّنُنِي إِنْزَالُ الْقَارِبِ إِلَى الْمَاءِ؟
فَوَقَّتَنِي كَانَ الزُّورُقُ مُسْتَقَرًّا فِي مُنْتَصَفِ الْغَابَةِ!

دَفَعْتُهُ، وَجَدَّبْتُهُ، وَجَرَزْتُهُ، وَرَكَلْتُهُ، وَصَرَحْتُهُ، وَبِبَسَاطَةٍ لَمْ يَتَزَحَّحِ الْقَارِبُ. وَلَمْ
يَكُنْ هُنَاكَ سَبِيلٌ لِأَتَمَكَّنَ مِنْ سَحْبِهِ طَوَالَ الطَّرِيقِ عَبْرَ الْغَابَةِ وَالْوَادِي، ثُمَّ إِلَى الشَّاطِئِ.
فَبِمَاذَا كُنْتُ أَفْكَرُ بِحَقِّ السَّمَاءِ؟

وَأَنْتَهَى صِرَاعِي مَعَ الزُّورُقِ بِلَا شَيْءٍ سِوَى الْإِحْبَاطِ، فَهَذَا الْقَارِبُ عَالِقٌ عَلَى الْيَابِسَةِ
إِلَى الْأَبَدِ. وَقُلْتُ لِشَيْبِي: «كَمْ هُوَ أَمْرٌ مُضْجِكٌ، فَعَلَى الشَّاطِئِ، لَدَيَّ أَجْزَاءٌ مِنْ سَفِينَةٍ لَا
يُمْكِنُ أَنْ تَطْفُوَ عَلَى صَفْحَةِ الْمَاءِ. وَفِي الْغَابَةِ، لَدَيَّ زُورُقٌ يُمْكِنُ أَنْ يَطْفُوَ، لَكِنِّي لَا
أَسْتَطِيعُ إِنْزَالَهُ إِلَى الْمَاءِ»

وَهَكَذَا، احْتَفَلْتُ بِالذِّكْرِ السَّنَوِيَّةِ الرَّابِعَةِ عَلَى الْجَزِيرَةِ بِقَارِبَيْنِ، لَكِنَّ أَيًّا مِنْهُمَا لَمْ
يُسَاعِدْنِي عَلَى الْهُرُوبِ مِنْ جَزِيرَتِي!

وَبِالرَّغْمِ مِنَ الْحَظِّ الْعَاثِرِ مَعَ الْقَارِبَيْنِ، فَكَانَ هُنَاكَ مِنَ الطَّعَامِ مَا يَكْفِينِي وَمِنَ
الْمَاءِ مَا يَرْوِينِي. وَكَانَ مَنَزِلِي أَمِنًا وَجَافًا (مُعْظَمَ الْوَقْتِ!) وَكَانَ هُنَاكَ مِنَ الْأَشْيَاءِ مَا
اِفْتَقَدْتُهُ، مِثْلَ الْجَزْرِ وَالْبَازِلَاءِ، لَكِنِّي كُنْتُ بِصِحَّةٍ جَيِّدَةٍ وَهَذَا هُوَ كُلُّ مَا يَهُمُّ حَقِيقَةً.
فَبِالْإِجْمَالِ، كَانَتْ السَّنَةُ الرَّابِعَةُ جَيِّدَةً.

بَدَأَ الْمَوْسِمُ الْمُمْطَرُ، وَحَانَ الْوَقْتُ كَيْ أَقْبَسَ وَأُعَدِّلَ مَلَاسِي. فَكُنْتُ قَدْ انْتَشَلْتُ
الكَثِيرَ مِنْ مَلَاسِ الْبَحَّارَةِ قَدَرًا مَا أُمْكِنُنِي مِنَ السَّفِينَةِ مُنْذُ سَنَوَاتٍ مَضَتْ. وَكَانَتْ أَهْمُ
الْأَشْيَاءِ الَّتِي أَخَذْتُهَا هِيَ الْقُمْصَانِ. فَاجْمَالًا، كَانَ مَعِيَ قُرَابَةُ عَشْرِينَ قَمِيصًا، وَكَانَتْ
الْقُمْصَانُ مَصْنُوعَةً مِنَ الْكُتَّانِ، فَكَانَتْ خَفِيفَةً وَمُرِيحَةً لِلْغَايَةِ، لَكِنَّهَا كَانَتْ فِي طَرِيقِهَا
لِلْبَلَى، وَتَحَوَّلَ الْكَثِيرُ مِنْهَا وَقْتَنِي لِخَرَقٍ بَالِيَةٍ. فَحَاوَلْتُ أَنْ أَرْتَدِّيَهَا كُلًّا عَلَى جِدَةٍ، كَيْ تَدُومَ
لِأَطْوَلِ فِتْرَةٍ مُمَكِنَةٍ.

وَكَانَتْ قَدْ انْتَشَلْتُ كَذَلِكَ الْعَدِيدَ مِنَ الْمِعَاطِفِ مِنَ السَّفِينَةِ مُنْذُ سَنَوَاتٍ مَضَتْ، وَلَكِنَّ
الطَّقْسَ عَلَى الْجَزِيرَةِ كَانَ حَارًّا لِذَرَجَةِ تَمْنَعُنِي مِنْ ارْتِدَائِهَا. فَبَدَلًا مِنْ ارْتِدَائِهَا، حَوَّلْتُهَا

إِلَى بِنَاطِيلٍ وَسَرَاوِيلٍ قَصِيرَةٍ. وَلَوْ كَانَتْ سِلَالِي غَيْرَ بَارِعَةٍ، فَإِنَّ خِيَاطِي كَانَتْ أَسْوَأَ بِكَثِيرٍ! وَبِحُلُولِ الْوَقْتِ الَّذِي انْتَهَيْتُ فِيهِ مِنْ صُنْعِ مَلَابِسِي، بَدَوْتُ مُنِيرًا لِلسُّخْرِيَّةِ! فَقُمَصَانِي بِالْيَتَّةِ، وَسَرَاوِيلِي أَرْتَدِيهَا بَعْدَ أَنْ كَانَتْ فِيمَا سَبَقَ مَعَاظِفًا! وَسَرِيعًا قَرَّرْتُ صُنْعَ مَلَابِسِي مِنْ جِلْدِ الْمَاعِزِ، وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ تَبَعًا لِلْمَوْضِعِ، بَلْ بَحْثًا عَنِ الرَّاحَةِ. وَإِضَافَةً إِلَى مَلَابِسِي مِنْ جِلْدِ الْمَاعِزِ، صَنَعْتُ أَيْضًا قُبْعَةً، فَلَوْنُ بَشْرَتِي فَاتِحٌ جَدًّا، وَكُنْتُ أَتَعَرَّضُ بِسُهُولَةٍ لِلْإِحْتِرَاقِ إِذَا مَكَّنْتُ فِي الْخَارِجِ لِفَتْرَةٍ أَكْثَرَ مِنَ اللَّازِمِ، وَكَانَتْ الْقُبْعَةُ فَعَالَةً فِي وَقَايَتِي مِنَ الشَّمْسِ.

وَبَيْنَمَا كُنْتُ أَعْدُلُ مَلَابِسِي، صَنَعْتُ كَذَلِكَ مِظْلَةً، وَأَصْبَحْتُ أَعْلَى مُقْتَنِيَاتِي؛ فَلَمْ تَقْتَصِرْ عَلَى حَبْلِهَا لِلشَّمْسِ عَنِّي وَحَسْبُ، لَكِنَّهَا أَيْضًا أَبَقَّتْنِي جَافًا أُنْتَاءَ الْمَوْسِمِ الْمُمَطِّرِ.

الفصل العشرون

حَادِثَةٌ أُخْرَى

عَلَى مَدَى الْخَمْسِ سَنَوَاتِ التَّلَايَةِ، حَقَّقْتُ نَجَاحَاتٍ عَلَى جَزِيرَتِي الصَّغِيرَةِ؛ فَكَانَ حَصَادِي نَاجِحًا، وَاسْتَكْشَفْتُ الْجَزِيرَةَ شَيْئًا فَشَيْئًا، وَكَانَ شِبْبِي وَبُولُ الْإِيفِينَ رَائِعَيْنِ، وَكَانَ لَدَيَّ الْكَثِيرُ مِنَ الطَّعَامِ مِنْ أَشْجَارِ الْفَاكِهَةِ، وَكَانَ الصَّيْدُ دَائِمًا حَسَنًا.

وَوَقَّتَنِي، ارْتَكَبْتُ مَا يُمَكِّنُ عُدَّهُ حِمَاقَةً؛ صَنَعْتُ قَارِبًا آخَرَ أَثْنَاءَ هَذِهِ الْفِتْرَةِ، وَتَعَلَّمْتُ أَيْضًا مِنْ أَخْطَائِي. فَبَدَلًا مِنْ اخْتِيَارِ شَجَرَةٍ مِنْ مُنْتَصَفِ الْعَابَةِ، عَثَرْتُ عَلَى أُخْرَى عَلَى مَسَافَةٍ أَقْرَبَ إِلَى الشَّاطِئِ. وَاسْتَعْرَقُ الْأَمْرُ مِنِّي شَهْرًا عَدِيدَةً لِأَنْحَتِ الزُّورَقُ كَمَا يَنْبَغِي. وَعِنْدَمَا انْتَهَيْتُ، أَنْزَلْتُهُ إِلَى الْمَاءِ بَوَضْعِ أَرْزَادِ الْأَشْجَارِ تَحْتَهُ وَدَحْرَجْتُهُ إِلَى الْأَمَامِ. وَمَا إِنْ عَرَفْتُ عَلَى وَجْهِ الْيَقِينِ أَنَّهُ سَيَطْفُو، صَنَعْتُ صَارِيًا صَغِيرًا وَشِرَاعًا. وَالآنَ، بَدَلًا مِنَ الْمَشْيِ

لِلْمِيَالِ وَأَمِيَالٍ حَتَّى الْجَانِبِ الْآخَرَ مِنَ الْجَزِيرَةِ، كَانَ يُمَكِّنُنِي السَّفَرُ بِالْقَارِبِ! وَلِأَنَّ قَلْبِي ظَلَّ يَتَوَقَّعُ لِلْمُعَامَرَةِ، بَدَأْتُ رِحْلَةَ وَبِصُحْبَتِي الْمُؤْنِ الْكَافِيَةَ لِيَوْمَيْنِ؛ فَأَخَذْتُ بَعْضَ الطَّعَامِ، وَارْتَدَيْتُ قُبْعَتِي، وَحَمَلْتُ مِظْلَتِي. وَأَبْحَرَ الْقَارِبُ الصَّغِيرُ بِسَلَاسَةٍ حَتَّى الْجَانِبِ الْآخَرَ مِنَ الْجَزِيرَةِ. وَاسْتَخْدَمْتُ الْمَرْسَى الصَّغِيرَ الَّذِي احْتَفَظْتُ بِهِ مِنْ السَّفِينَةِ الْكَبِيرَةِ وَذَهَبْتُ إِلَى الشَّاطِئِ لِلِاسْتِكْشَافِ. وَخَيَّمْتُ فِي الْخَارِجِ لِيَوْمَيْنِ كَامِلَيْنِ. وَمَا إِنْ اسْتَكْشَفْتُ طَبِيعَةَ الْمَكَانِ، أَخَذْتُ طَرِيقَ الْعُودَةِ إِلَى قَارِبِي، وَذَهَبْتُ عَنِ الْمَكَانِ لِابْتِحَارِ عَائِدًا لِلْمَنْزِلِ.

وَبَدَلًا مِنْ عُودَتِي مِنْ نَفْسِ طَرِيقِ قُدُومِي، قَرَّرْتُ الذَّهَابَ مِنَ الْجِهَةِ الْآخَرَى. وَبَعْدَ فِتْرَةٍ قَصِيرَةٍ مِنْ انْطِلَاقِي، تَلَقَّتِ التِّيَّارَاتُ مِنْ اتِّجَاهَاتٍ عِدَّةٍ، وَبَدَأَتِ الْمِيَاهُ تَجْرِفُنِي إِلَى

دَاخِلِ الْبَحْرِ، وَلَمْ يَبْدُ لِتَجْدِيفِي أَيُّ أَثَرٍ. هَبَّتِ الرِّيحُ بِشِدَّةٍ، بَلْ وَجَرَ فَنَنِي إِلَى مَكَانٍ أَبْعَدَ،
وَاحْتَفَّتْ جَزِيرَتِي الصَّغِيرَةَ مِنْ عَلَى بَعْدِ.

صَرَخْتُ: «أَوَاهُ! لِمَاذَا أَنَا؟ لِمَاذَا تَانِيَةً! مَاذَا أَفْعَلُ؟ أَيْنَ سَأَدْهُبُ؟» لَاحَظَ شَيْبِي
فَزَعِي، فَتَبَحَّ وَنَبَحَ. وَكُلُّ مَا أَرَدْتُهُ حِينَهَا هُوَ الْعُودَةُ لِلْبَيْتِ. فَكَانَ مُحَيِّمِي جَنَّةً مُقَارَنَةً
بِنَحْطِ قَارِبِي أَوْ سُعُورِي بِالضِّيَاعِ فِي الْبَحْرِ. فَأَنْزَلْتُ الصَّارِي وَالشَّرَاعَ لِأَرَى إِنْ كَانَ
سَيُؤْتِرُ، وَلَكِنَّ الْقَارِبَ كَانَ قَدْ عَلِقَ فِي التِّيَّارِ.

كَانَ الشَّيْءُ الْوَحِيدُ الَّذِي يَسْعَنِي عَمَلُهُ هُوَ الْإِنْتِظَارُ. فَتَوَقَّفْتُ عَنِ الْمُحَاوَلَةِ وَتَرَقَّبْتُ
وَالشَّمْسُ تُلْقِي بِأَشِعَّتِهَا عِبْرَ جَزِيرَتِي. وَبَعْدَ الظَّهِيرَةِ، تَغَيَّرَتِ الرِّيحُ، وَبَدَأَتْ تَهُبُّ شَمَالًا،
مِمَّا بَعَثَ فِيَّ شَيْئًا مِنَ الْأَمَلِ. فَأَعْدْتُ الصَّارِي وَالشَّرَاعَ بِسُرْعَةٍ إِلَى مَكَانِهِمَا لِأَعْلَى، وَلَا شَيْءَ
سِوَى الْعَمَلِ الْمُضْنِي جَعَلَ الْقَارِبَ يَجْتَازُ التِّيَّارَ. فَلَمْ أُبْجَرْ قَطُّ بِهَذِهِ الصُّعُوبَةِ فِي حَيَاتِي.
تَأْرَجَحَ الْقَارِبُ قَلِيلًا، لِلْخَلْفِ وَاللِّأَمَامِ، وَلِلْأَمَامِ وَاللِّخَلْفِ، ثُمَّ قَرَّرْتُ الْبَدْءَ فِي التَّجْدِيفِ. وَبَعْدَ
مَا يَقْرُبُ مِنْ سَاعَةٍ، عَادَ الْقَارِبُ أُخِيرًا إِلَى مَسَارِهِ وَتَوَجَّهْتُ بِهِ عَائِدًا بِاتِّجَاهِ الْجَزِيرَةِ.

عِنْدَ عَوْدَتِي إِلَى جَانِبِ الْجَزِيرَةِ الَّذِي اعْتَدْتُهُ، كَانَتِ الشَّمْسُ تَمِيلُ لِلْغُرُوبِ. وَأَرَدْتُ
الْعُودَةَ إِلَى الشَّاطِئِ قَبْلَ حُلُولِ الظَّلَامِ بِالْكَامِلِ. وَبَدَلًا مِنْ مُحَاوَلَتِي الْعُودَةَ إِلَى النَّهْرِ
(حَيْثُ اسْتَخْدَمْتُ الطَّوْفَ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ وَعَلَيْهِ مُؤْنِي مِنَ السَّفِينَةِ)، قَرَّرْتُ التَّوَقُّفَ عِنْدَ خَلِيجِ
صَغِيرٍ قَبْلَ حُلُولِ الظَّلَامِ مُبَاشَرَةً. وَلِحَسَنِ الْحِظِّ أَنَّ الْمِيَاهَ كَانَتْ هَادِيَةً، وَجَدَّفْتُ بِقَارِبِي
إِلَى الشَّاطِئِ.

وَجِينِدُ، كَانَ الظَّلَامُ دَامِسًا، فَرَبَطْتُ الْقَارِبَ وَقَرَّرْتُ الْمَبِيتَ لِقِضَاءِ اللَّيْلِ، وَصَعِدْتُ
إِلَى شَجَرَةٍ وَحَاوَلْتُ النَّوْمَ.
وَبَيْنَمَا كُنْتُ أَحَاوِلُ الْوُصُولَ إِلَى وَضْعِيَّةٍ مُرِيحَةٍ، غَمَعَمْتُ لِنَفْسِي مُنَدَّمَرًا: «أَفْتَقَدُ
أَرْجُوحَتِي الشَّبَكِيَّةَ.»

وَفِي صَبَاحِ الْيَوْمِ التَّالِيِ، جَدَّفْتُ بِالْقَارِبِ بِحَذَرٍ شَدِيدٍ حَتَّى مَمَرٌ مَائِي صَغِيرٍ قَرِيبٍ
مِنْ مُحَيِّمِي. وَكُنْتُ فِي شِدَّةِ الْإِجْهَادِ حِينَ وَصَلْتُ لِلْبَيْتِ. آه يَا جُدْرَانِي الْعَزِيزَةَ! آه يَا
سِيَاجِي الرَّائِعَ! لَمْ أَقُمْ حَتَّى بِنَزَعِ قُبْعَتِي بَعْدَمَا دَخَلْتُ؛ قَفَزْتُ وَحَسَبُ مُبَاشَرَةً عَلَى

أُرْجُو حَتَّى الشَّبَكِيَّةِ وَغَرِقْتُ فِي النَّوْمِ. كَانَ ذِرَاعَايَ وَسَاقَايَ تَتَنُ مِنَ الْأَلَمِ، أَمَّا عَقْلِي فَكَانَ فِي غَايَةِ الإِزْهَاقِ.

سَمِعْتُ صَوْتًا غَرِيبًا يُنَادِينِي فِي مَنَامِي: «رُونسون كروزو! رُونسون كروزو! أَيْنَ كُنْتَ؟ وَكَيْفَ وَصَلْتَ إِلَى هُنَا؟» فَتَعَجَّبْتُ: هَلْ نَجَوْتُ؟ هَلْ أَحْيَا أَمَّا أَحَدُهُمْ لِأَخْذِي؟ فَتَحْتُ عَيْنًا وَاحِدَةً وَرَأَيْتُ بُولَ جَائِمًا فَوْقَ صَدْرِي. لَقَدْ كَانَ البَّبْغَاءُ!

قُلْتُ وَأَنَا أَتَقَلَّبُ وَأَعُودُ لِلنَّوْمِ: «أِهْ يَا بُول، مِنْ الرَّائِعِ أَنْ أَكُونَ فِي البَيْتِ.»
لَا زَمَنِي إِحْسَاسُ الضِّيَاعِ فِي البَحْرِ عَلَى مَدَى الأَيَّامِ القَلِيلَةِ التَّالِيَةِ. فَكُنْتُ فِي غَايَةِ الرُّعْبِ، فَكَانَ يُمَكِّنُ أَنْ أَفْقِدَ كُلَّ شَيْءٍ. فَدَارَ فِي ذَهْنِي: «لَا، لَنْ أُبَجِرَ تَانِيَةً. فَالْأَمْرُ لَا يَسْتَحِقُّ المُخَاطَرَةَ.»

العقد الأول

عَشْرُ سِنِينَ مَرَّتْ، وَكَانَ الْبَارُودُ فِي طَرِيقِهِ لِلنَّفَادِ، وَكُنْتُ فِي حَاجَةٍ إِلَى الْعُنُورِ عَلَى وَسِيلَةٍ
لِتَوْفِيرِ الطَّعَامِ لَا تَشْمَلُ الصَّيْدَ. فَلَوْ اسْتَطَعْتُ الْإِمْسَاكَ بِعَدَدٍ قَلِيلٍ مِنْ صِغَارِ الْمَاعِزِ،
فَيُمْكِنُنِي تَرْوِيضُهَا، وَلَوْ اسْتَطَعْتُ تَرْوِيضَهَا، سَيَكُونُ لَدَيَّ طَعَامٌ دَوْمًا؛ إِذْ سَيَكْبُرُونَ
سَرِيعًا حَتَّى يُصْبِحُوا قَطِيعًا كَامِلًا مِنَ الْمَاعِزِ.

اسْتَعْرَقَ الْأَمْرُ مِنِّي بَعْضَ الْمَحَاوَلَاتِ قَبْلَ أَنْ أَتَمَكَّنَ مِنَ الْإِمْسَاكِ بِالْمَاعِزِ؛ فَإِذَا أَكَلَّ
الْمَاعِزُ الذَّرَّةَ الَّتِي بَدَأَتْ بِزَرْعِهَا، لَا تَقَعُ فِي الْفَخِّ! وَعِنْدَمَا يَعْمَلُ الْفَخُّ، لَا يَكُونُ الْمَاعِزُ
بِالْجَوَارِ!

وَبَعْدَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنَ الْمَحَاوَلَةِ، عُدْتُ إِلَى الْحُفْرَةِ ذَاتَ صَبَاحٍ لِأَجِدَ الْمَاعِزَ يَمْضُغُونَ
بِسَعَادَةٍ الْأَكْلَ الَّذِي تَرَكْتُهُ، فَاقْتَدْتُ الْمَاعِزَ إِلَى الْمَرْجِ الْقَرِيبِ مِنْ بَيْتِي الصَّيْفِيِّ. وَكَانَ
هُنَاكَ بِالْفِعْلِ سِيَاحٌ جَمِيلٌ مِنَ الشُّجَيْرَاتِ يُحِيطُ بِالْمَنْطِقَةِ، وَكُنْتُ قَدْ أَقَمْتُهُ كَيْ لَا تَهْرَبَ
الْمَاعِزُ بِمَجَرِّدِ إِدْخَالِهَا إِلَى الْكَلَاءِ. وَلَمْ يُحِبَّ صِغَارُ الْمَاعِزِ الثَّلَاثَةُ التَّقْيِيدَ عَلَى الْإِطْلَاقِ،
لَكِنْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ مِنْ سَبِيلٍ آخَرَ حَتَّى أَتَأَكَّدَ مِنْ بَقَائِهَا. وَكُنْتُ أُطْعِمُهُمُ الذَّرَّةَ وَالْأُزْرَ،
وَقَدْ أَحَبَّبْتُهَا كَثِيرًا حَتَّى إِنَّهَا غَالِبًا مَا كَانَتْ تَأْكُلُهَا مِنْ يَدِي مُبَاشَرَةً.

بَقِيْنَا عَلَى هَذِهِ الْحَالِ لِفَتْرَةٍ، يَأْكُلُونَ مَا أُقَدِّمُهُ لَهُمْ، فِي حِينِ ظَلُّوا مُقَيَّدِينَ. وَعِنْدَمَا
تَيَقَّنْتُ مِنْ عَدَمِ تَحْوِيلِهِمْ إِلَى مَاعِزِ بَرِّي، تَرَكْتُهُمْ يَتَحَرَّكُونَ بِحُرِّيَّةٍ فِي الْمَرْجِ. وَكَبُرَ الْقَطِيعُ
بِاطْرَادِهِ عَلَى مَدَى السَّنِينَ الْقَلِيلَةِ التَّالِيَةِ، فَأَصْبَحَ لَدَيَّ الْآنَ حِصَادٌ وَأَشْجَارٌ فَكِهِةٌ وَمَاعِزٌ.

وَكُنْتُ فَحُورًا جِدًّا بِمَزْرَعَتِي الْمُتَنَامِيَةِ؛ فَكَانَتِ الدُّرَّةُ تَنْمُو نُموًّا صِحِّيًّا، وَكَذَلِكَ الْأُرْزُ،
 كَمَا وَفَرَ لِي الْقَطِيعُ كُلًّا مِنَ اللَّحْمِ وَاللَّبَنِ. وَبِالْإِجْمَالِ، تَطَوَّرَتِ الْأَشْيَاءُ كَمَا يَجِبُ أَنْ
 تَتَطَوَّرَ. وَصَنَعْتُ الْمَزِيدَ مِنَ الْمَلَابِسِ مِنْ جِلْدِ الْمَاعِزِ. وَكَانَ بَوْلُ يُرَافِقُنِي فِي صُحْبَةِ
 حَسَنَةٍ، إِلَّا أَنَّ شَيْبِي كَبُرَ فِي السِّنِّ وَمَاتَ. وَبِالرُّغْمِ مِنْ أَنَّي كُنْتُ أَفَكَّرُ فِي رُجُوعِي لِلْقَارِبِ
 طَوَالَ الْوَقْتِ، إِلَّا أَنَّي لَمْ أَفْعَلْ ذَلِكَ قَطُّ. وَمَرَّتْ سَنَوَاتٌ عَدِيدَةٌ قَبْلَ حَتَّى أَنْ أَقْتَرَبَ مِنْ
 مَكَانِ رَبِّهِ!

بِوَسْعِكَ أَنْ تَتَخَيَّلَ مَعِي كَيْفَ كُنْتُ أَبْدُو بَعْدَ قَضَاءِ عَشْرِ سَنَوَاتٍ كَامِلَةٍ كَشَخِصٍ
 مَنْفِيٍّ! كُنْتُ أَرْتَدِي مَلَابِسَ مِنْ جِلْدِ الْمَاعِزِ وَقُبْعَةً كَبِيرَةً مُتَهَدَّلَةً، وَكُنْتُ طَوِيلَ الشَّعْرِ
 وَاللَّحْيَةِ، أَمَّا جِلْدِي فَكَانَ غَالِبًا أَحْمَرَ وَمُحْتَرِقًا. لَمْ أَكُنْ أَدْرِي أَيَّ شَيْءٍ عَنْ صِيحَاتِ
 الْمَوْضَةِ فِي وَطَنِي، وَأَطْنُ أَنْ هَذَا لَمْ يُشْكَلْ فَارِقًا بِالنَّسْبَةِ لِي، فَلَمْ يَكُنْ هُنَاكَ أَحَدٌ عَلَى
 الْجَزِيرَةِ لِيُرَانِي عَلَى أَيِّ حَالٍ!

الفصل الثاني والعشرون

أثر قدم

ذات يوم، خلال جولتي الصباحية الطويلة المعتادة، قررتُ قطفَ بعضِ العنبِ لِعَمَلِ الزبيب، لكن حينها انتابتني لحظة شجاعة.

وفكرتُ: «لعلي أذهبُ لِأَتَأَكَّدَ مِنْ وُجُودِ قَارِبِي هُنَاكَ، فَأَنَا أَشْعُرُ بِالشَّجَاعَةِ الْيَوْمَ.»
لذا بدلاً من زيارة بيتي الصيفي انعطفتُ في مسيري باتجاه الشاطئ للمكان الذي ربطتُ فيه القارب، وعندما وصلتُ هناك، وجدتُ أثرَ قدمِ إنسانٍ في الرمالِ.

تَعَجَّبْتُ وَقُلْتُ: «أه! لا! مَنْ يَكُونُ هَذَا؟ لَا بَدَّ أَنَّهُمْ أَهْلُ الْجَزِيرَةِ! لَا أُرِيدُهُمْ أَنْ يَرُونِي! وَلَا أُرِيدُهُمْ أَنْ يَعْرِفُوا بِأَمْرِي! جَرَيْتُ بِأَقْصَى سُرْعَةٍ طَوَالَ طَرِيقِ عَوْدَتِي لِلْمَحِيمِ. وَنَظَرْتُ خَلْفِي مَرَارًا وَتَكَرَّرًا، بَيْنَمَا أُجْرِي. مَاذَا لَوْ وَجَدُونِي؟ مَاذَا سَيَفْعَلُونَ بِي؟ وَبَعْدَ الْجُرْيِ لِمَا يُقَارِبُ السَّاعَةَ، وَصَلْتُ عَائِدًا إِلَى سِيَاجِي، وَقَفَرْتُ عَلَى سُلْمِي، وَسَحَبْتُهُ لِلدَّخْلِ بَعْدَ صُعُودِي.

تَقَلَّبْتُ فِي فَرَاشِي طَوَالَ هَذِهِ اللَّيْلَةِ؛ فَهَنَّاكَ الْكَثِيرُ مِمَّا لَا أَعْرِفُهُ؛ فَهَلْ هُوَ رَجُلٌ وَاحِدٌ فَحَسْبُ، أَمْ أَكْثَرُ مِنْ وَاحِدٍ؟ هَلْ سَيَأْتُونَ لِي؟ وَإِذَا كَانُوا قَدْ وَجَدُوا مَرْكَبِي، فَسَيَعْرِفُونَ أَنَّي هُنَا! وَكَانَ قَلْبِي تَتَسَارَعُ دَقَاتُهُ، وَيَدَايَ تَرْتَعِشَانِ، وَخَشِيتُ مِنْ أَنْ كُلَّ شَيْءٍ بَنَيْتُهُ كَانَ عَلَى وَشِكِّ التَّدْمِيرِ.

مَرَّتْ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ كَامِلَةً قَبْلَ حَتَّى أَنْ أُغَادِرَ مُحَيَّمِي، وَحَتَّى حِينَهَا، لَمْ أُرِدِ الذَّهَابَ، لَكِنِّي احْتَجْتُ الْمَاءَ وَكَانَ عَلَيَّ حَلْبُ مَاعِزِي، فَاتَّخَذْتُ مَسَارًا تَسْتَرْتُ فِيهِ عَنِ الرُّوْبَةِ

طَوَالَ الطَّرِيقَ حَتَّى بَلَغْتُ بَيْتِي الصَّيْفِيِّ، وَلَمْ أَرِ شَيْءَ غَيْرِ عَادِيٍّ؛ لِذَا قَضَيْتُ هُنَاكَ
بِضْعَةَ أَيَّامٍ فِي مَحَاوَلَةٍ كَيْ أَهْدَأَ.

قُلْتُ لِنَفْسِي: «روبسون! رَبِّمَا يَكُونُ رَدُّ فِعْلِكَ مُبَالِغًا فِيهِ، فَقَدْ يَكُونُ هَذَا الْأَثَرُ هُوَ
أَثَرُ قَدَمِي أَنَا، وَأَنَا لَمْ أَلْحِظْ أَنَّي تَرَكَتُهُ.» فَاسْتَجَمَعْتُ شَجَاعَتِي كُلَّهَا وَسِرْتُ عَائِدًا إِلَى
الشَّاطِئِ لِأُلْقِي نَظْرَةً أُخْرَى، وَكَانَ الْأَثَرُ لَمْ يَزَلْ هُنَاكَ!

وَعِنْدَمَا وَضَعْتُ قَدَمِي بِجَانِبِ أَثَرِ الْقَدَمِ وَجَدْتُ أَنَّ أَثَرَ الْقَدَمِ ضِعْفُ حَجْمِ قَدَمِي
تَقْرِيبًا! فَقُلْتُ: «هَذَا غَيْرُ مَعْقُولٍ!» وَبَدَأْتُ أَرْتَعِشُ وَأَتَصَبَّبُ عَرَقًا فِي ذَاتِ الْوَقْتِ. وَاسْتَعْرِفْتُ
بِضْعِ دَقَائِقَ لِكَيْ أَسْتَجْمِعَ أَفْكَارِي، ثُمَّ جَرَيْتُ إِلَى الْمَنْزِلِ بِأَقْصَى سُرْعَتِي.

قَضَيْتُ لَيْلَةً أُخْرَى مُورَقًا، أَفْكَرُ فِي أَثَرِ الْقَدَمِ تِلْكَ. وَفِي نَوْبَةِ جُنُونٍ قَرَّرْتُ اقْتِلَاعَ كُلِّ
مَحَاصِيلِي وَإِطْلَاقَ سَرَّاحِ مَا عَزَيْ؛ وَبِهَذَا لَنْ يَعْرِفَ أَحَدٌ أَنَّي كُنْتُ هُنَا. وَطَلَعَ الصُّبْحُ،
وَكَانَ الْيَوْمُ صَافِيًا وَمُشْرِقًا، وَوَجَدْتُ مَزْرَعَتِي مَا زَالَتْ بِأَكْمَلِهَا كَمَا هِيَ، وَعَرَفْتُ حِينَهَا
أَنَّهُ لَا دَاعِيَ لِتَدْمِيرِ كُلِّ شَيْءٍ بَنِيَّتُهُ، وَأَنَّي فَقَطُ فِي حَاجَةٍ لِأَنْ أَكُونَ حَرِيصًا.

مَرَّتْ سَنَتَانِ لَمْ أَرِ فِيهِمَا أَحَدًا، وَلَمْ يَظْهَرْ مَزِيدٌ مِنْ آثَارِ الْأَقْدَامِ عَلَى الرَّمْلِ، وَلَمْ يَأْتِ
أَحَدٌ وَيُبَاغِتْنِي فِي اللَّيْلِ، وَاسْتَمَرَّتِ الْحَيَاةُ كَالْمُعْتَادِ.

الفصل الثالث والعشرون

لَا دُخَانَ وَلَا نَارَ

مَرَّتْ سِنُونَ وَسِنُونَ، وَلَمْ يَنْغَيِّرِ الْكَثِيرُ عَلَى جَزِيرَتِي؛ فَالْأَمْطَارُ تَحُلُّ وَتَذْهَبُ، وَالشَّمْسُ تَشْرِقُ، وَأَسْتَمَرَّتْ أَيَّامِي كَمَا انْقَضَتْ عَلَى مَدَى الْكَثِيرِ وَالْكَثِيرِ مِنَ الشُّهُورِ، وَأَصْبَحْتُ أَهْوَى جَوْلَاتِي الصَّبَاحِيَّةِ الْبَاكِرَةِ، وَلَا يُسْعِدُنِي شَيْءٌ أَكْثَرَ مِنْ ذَهَابِي إِلَى مَنْزِلِي الصَّيْفِيِّ، لِأَرَى مَا عِزِّي، وَالْقِيَّ نَظْرَةً عَلَى مَحَاصِلِي.

وَبِنَفْسِ سُرْعَةٍ هُطُولِ الْمَطَرِ، تَحَوَّلَ كُلُّ شَيْءٍ فِي لَحْظَةٍ؛ فَكُنْتُ أَسِيرُ نَحْوَ الْجَانِبِ الْآخَرَ مِنَ الْجَزِيرَةِ ذَاتِ صَبَاحٍ عِنْدَمَا رَأَيْتُهُمْ؛ أَهْلُ الْجَزِيرَةِ! وَكَانَ هُنَاكَ أَعْدَادٌ هَائِلَةٌ مِنْ زَوَارِقِهِمْ عَلَى الشَّاطِئِ، وَكَانُوا مُنْشَغِلِينَ بِإِشْعَالِ نَارٍ عَظِيمَةٍ. اخْتَبَأْتُ وَتَابَعْتُهُمْ، وَتَسَاءَلْتُ مَاذَا أَفْعَلُ. وَبَدَلًا مِنَ الْهَرُوبِ عَائِدًا إِلَى الْمُحَيِّمِ، جَلَسْتُ وَفَكَّرْتُ فِي الْأَمْرِ بِعَقْلَانِيَّةٍ.

«لَقَدْ ظَلَلْتُ هُنَا مَا يَقَارِبُ الْعِشْرِينَ عَامًا، وَهُمْ لَمْ يَعْنُرُوا عَلَيَّ قَطُّ، بَلْ لَمْ يَرَوْنِي. فَإِذَا بَقِيَتْ مُخْتَبِئًا، فَرَبَّمَا لَنْ يَجِدُونِي أَبَدًا.»

انصرفتُ جَلِيسَةً مِنَ الشَّاطِئِ وَذَهَبْتُ لِلْبَيْتِ. وَأَرَدْتُ أَنْ أَكْمَلَ حَيَاتِي، لَكِنِّي عَرَفْتُ أَنَّ الْأُمُورَ لَنْ تَظَلَّ أَبَدًا عَلَى حَالِهَا.

اشْتَمَلْتُ طُقُوسِي الصَّبَاحِيَّةِ بِدَايَةِ مِنْ هَذَا الْيَوْمِ فَصَاعِدًا عَلَى اتِّخَاذِ إِجْرَاءَاتٍ أَمْنِيَّةٍ، فَكُنْتُ أَصْعَدُ إِلَى قِمَّةِ التَّلِّ الْعَالِيِ وَمَعِي مِنْظَارِي الْقَدِيمَ لِأَنْظُرَ فِي الْأَرْجَاءِ. وَبَدَلًا مِنْ تَرْقُبِ السُّفْنِ، كُنْتُ أَبْحَثُ عَنِ الزَّوَارِقِ. وَمَرَّتْ أَسَابِيعُ ثَمَّ شُهُورٌ، وَتَوَصَّلْتُ إِلَى أَنَّ جَزِيرَتِي هِيَ حَتْمًا بُقْعَةٌ لَا يَقْصِدُونَهَا غَالِبًا، وَرَبَّمَا تَمُرُّ سِنَوَاتٌ أُخْرَى قَبْلَ أَنْ يَرْجِعُوا، وَرَبَّمَا لَا يَرْجِعُونَ أَبَدًا.

وَكَانَ أَهْمُهُ مَا شَعَلَ بِأَيِّ أَنْ تَكُونَ حَيَاتِي عَلَى الْجَزِيرَةِ مُتَوَارِيَةً عَنِ الْأَنْظَارِ قَدَرَ
الْإِمْكَانِ. وَأَكْبَرُ مُشْكَلَةٍ كَانَ عَلَيَّ حُلُّهَا هِيَ كَيْفِيَّةُ إِشْعَالِ نَارِ بَدُونِ دُخَانٍ. فَلَمْ أَكُنْ أُرِيدُ
إِشْعَالَ النَّارِ فِي كَهْفِ التَّخْزِينِ الْبَارِدِ؛ فَهَذَا كَفَيْلٌ بَأَنَّ يُظْهِرَ مُحْصِيَّ بِأَكْمَلِهِ لِلْعِيَانِ.
لَا، عَلَيَّ أَنْ أَجِدَ كَهْفًا بَعِيدًا عَنِ مُحْصِيَّ، فَالدُّخَانُ فِي الْحَقِيقَةِ هُوَ الدَّلِيلُ الْوَجِيدُ عَلَى
وُجُودِ إِنْسَانٍ آخَرَ يَعْيشُ عَلَى الْجَزِيرَةِ، وَبَدُونِ الدُّخَانِ رُبَّمَا لَا يَكْتَشِفُ أَهْلُ الْجَزِيرَةِ أَبَدًا
مُحْصِيَّ أَوْ مَنْزِلِي الصَّيْفِيِّ.

اسْتَعْرَفْتُ بِضَعَةِ أَيَّامٍ لِأَجْدِ الْمَكَانِ الْمُنَاسِبِ لِإِشْعَالِ النَّارِ. فَكَانَ الْكَهْفُ كَبِيرًا
بِالْفِعْلِ، وَحِينَ سَرْتُ أَكْثَرَ بِدَاخِلِهِ، تَبَيَّنَ لِي أَنَّي أَسْتَطِيعُ الْوُقُوفَ فِي مُنْتَصَفِهِ بِسُرٍّ.
بَعْدَ ذَلِكَ، حَدَّثَ مَا أَخْفَانِي وَأُرْعَدُ فَرَائِصِي! فَبَيْنَمَا كُنْتُ أَسْتَكْشِفُ الْكَهْفَ، انْعَطَفْتُ
حَوْلَ زَاوِيَةٍ وَإِذْ بِي وَجْهًا لَوَجْهِ أَمَامَ عَيْنَيْنِ بَرَّاقَتَيْنِ تُحَدِّقَانِ فِيَّ. يَا لَهَا مِنْ صَدْمَةٍ!
وَبَعْدَمَا التَّقَطْتُ نَفْسِي، نَظَرْتُ مِنْ قَرِيبٍ لِأَجْدِ تَيْسًا عَجُوزًا وَمَرِيضًا رَاقِدًا فَحَسَبْتُ، لَا
يُرِيدُ التَّحَرُّكَ وَلَمْ أَرْعَمُهُ عَلَيْهِ، فَقَطُّ أُعْطِيَتْهُ شَرْبَةً مِنَ الْمَاءِ وَتَرَكَتُهُ لِحَالِهِ.

عُدْتُ فِي الْيَوْمِ الثَّانِي إِلَى الْكَهْفِ وَمَعِيَ بَعْضُ الْمُعَدَّاتِ: شُمُوعٌ وَعَيْرُهَا مِنَ الْأَشْيَاءِ
الْأُخْرَى. وَكَانَ فِي الْكَهْفِ دَهْلِيْزٌ طَوِيلٌ وَضَيْقٌ يَقُودُ إِلَى حُجْرَةٍ جَمِيلَةٍ، تُلْمَعُ فِي الضِّيِّ
بِأَضْوَاءٍ بَهِيَّةٍ مُتَلَالِيَةً.

وَفَكَّرْتُ: «رُبَّمَا يَكُونُ مَاسًا!» لَكِنْ لَمْ يَكُنْ هَذَا هُوَ وَقْتُ التَّفَكُّيرِ فِي التَّنْقِيبِ!
وَلِأَنَّ الْكَهْفَ كَانَ آمِنًا وَجَافًا، قَرَّرْتُ تَخْزِينَ مَا تَبَقِيَ مِنْ بَارُودِي هُنَاكَ، مَعَ بِنَادِي
الرَّائِدَةِ، كَمَا طَهُوتُ مُعْظَمَ طَعَامِي بِالدَّاخِلِ، حَيْثُ لَنْ يَسْتَطِيعَ أَحَدٌ أَنْ يَرَى الدُّخَانَ
الْمُتَصَاعِدَ مِنَ النَّارِ.

الفصل الرابع والعشرون

تَحَطُّمْ سَفِينَةٍ أُخْرَى

أَصْبَحَ الْآنَ مَنْزِلَايَ عَلَى الْجَزِيرَةِ مُؤَمَّنِينَ، وَكَهْفُ الطَّهْيِ عَلَى خَيْرِ مَا يِرَامُ، وَمُرَاقِبَاتِي الْيَوْمِيَّةَ رُوتِيًّا حَسَنًا، فَشَعَرْتُ بِالْأَمَانِ، لِكِنِّي ظَلَلْتُ مُنْشَغَلًا كَيْ أُبْعِدَ تَفْكِيرِي عَنْ أَهْلِ الْجَزِيرَةِ.

وَفِي لَيْلَةٍ مُرْعَبَةٍ، سَمِعْتُ صَوْتَ إِطْلَاقِ مِدْفَعٍ مِنْ عَلَى بُعْدٍ، فَاَنْطَلَقْتُ إِلَى قِمَّةِ التَّلِّ الْعَالِيِ وَحَاوَلْتُ أَنْ أَرَى مَاذَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ، لَكِنَّ الظَّلَامَ كَانَ دَامِسًا. أَسْرَرْتُ لِلَّيْلِ: «لَا بُدَّ أَنَّهَا سَفِينَةٌ فِي خَطَرٍ! يُمْكِنُهُمْ أَنْ يُنْقِذُونِي!» أَشْعَلْتُ نَارًا عَظِيمَةً بِالرُّغْمِ مِنْ مَعْرِفَتِي أَنَّ فِعْلَ ذَلِكَ أَمْرٌ خَطِيرٌ.

وَتَمَنَّمْتُ لِنَفْسِي بَيْنَمَا كُنْتُ أَتَسَلَّقُ بِسُرْعَةٍ لِأَبْقِي النَّارَ مُسْتَعِرَةً: «لَا بُدَّ أَنْ يَرَوْهَا! لَا بُدَّ أَنْ يَرَوْهَا!» وَكَانَتْ الرِّيحُ شَدِيدَةً مِمَّا جَعَلَ السَّيْطَرَةَ عَلَى النَّارِ أَمْرًا صَعْبًا. وَتَقْرِبًا بَعْدَ لَحْظَاتٍ، سَمِعْتُ طَلْقَتَيْنِ أُخْرَيَيْنِ مِنَ الْمِدْفَعِ، ثُمَّ بَضِعَ طَلْقَاتٍ مِنَ الْبِنَادِقِ، فَلَا بُدَّ أَنَّهُمْ رَأَوْا إِشَارَتِي!

حَلَّ الْفَجْرُ سَرِيعًا، وَبَدَأَ الضَّبَابُ يَنْقَشِعُ بَيْنَمَا أَذْفَأَتِ الشَّمْسُ الْجَزِيرَةَ. وَاسْتَطَعْتُ بِصُعُوبَةٍ تَمَيِّزَ وُجُودِ سَفِينَةٍ مِنْ عَلَى بُعْدٍ، فَرَكَضْتُ طَوَالَ الطَّرِيقِ بِاتِّجَاهِ النَّاحِيَةِ الْجَنُوبِيَّةِ مِنَ الْجَزِيرَةِ، وَنَزَلْتُ عَلَى رُكْبَتَيَّ بِمَجْرَدِ وُصُولِي لِلشَّاطِئِ. حُطَامًا! أَوَاهُ! هُوَلاءِ الرَّجَالِ الْمَسَاكِينِ؛ تَحَطَّمَتْ سَفِينَتُهُمْ عَلَى نَفْسِ الصُّحُورِ الَّتِي كَادَتْ تُنْهِي حَيَاتِي مُنْذُ سَنَوَاتٍ كَثِيرَةٍ مَاضِيَةٍ. وَصَاقَ صَدْرِي حِينَ عَرَفْتُ اسْتِحَالَةَ وُجُودِ أَحْيَاءٍ. فَهَمْ أَرْسَلُوا الْإِشَارَةَ وَلَمْ تَنْقِذْهُمْ أَيُّ سَفِينَةٍ. وَفِي هَذَا الظَّلَامِ، بِالتَّأَكُّدِ لَمْ يَرَوْا جَزِيرَتِي.

وَأَنْتَحَبْتُ: «أَه لَوْ نَجَا وَاحِدٌ مِنْهُمْ فَقَطُّ، وَاحِدٌ فَقَطُّ!» شَعَرْتُ بِالْوَحْدَةِ فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ
بِالذَّاتِ أَكْثَرَ مِمَّا شَعَرْتُ بِهَا طَوَالَ مَا يَزِيدُ عَنِ الْعِشْرِينَ عَامًا الَّتِي قَضَيْتُهَا بِمُفْرَدِي.
وَالْإِحْتِيَارُ الْوَحِيدُ الَّذِي كَانَ عَلَيَّ اتِّخَاذُهُ وَقَتِيدُهُ هُوَ مَا إِذَا كُنْتُ سَأَسْتَحْدِمُ قَارِبِي
وَمَعْرِفَةَ إِمْكَانِيَّةِ جَمْعِ الْمُؤْنِ مِنَ السَّفِينَةِ. وَفِي النِّهَايَةِ، قَرَّرْتُ أَنَّ الْأَمْرَ يَسْتَحِقُّ الْمُخَاطَرَةَ.
لَكِنِّي انْتَهَرْتُ حَتَّى الصَّبَاحِ التَّالِي، عِنْدَمَا كَانَ الْمُدُّ مُنْخَفِضًا، فَلَمْ أَكُنْ أُرِيدُ أَنْ يَجْرَفَنِي
التِّيَّارُ لِدَاخِلِ الْبَحْرِ.

مَا إِنْ أَقْتَرَبْتُ مِنَ الْقَارِبِ، سَمِعْتُ كَلْبًا يَنْبُحُ، فَنَادَيْتُ عَلَيْهِ وَقَفَزَ مُبَاشَرَةً فِي قَارِبِي،
وَكَانَ بِلَا شَكٍّ رَفِيقًا صَغِيرًا مُشَاكِسًا. وَوَجَدْتُ أَنَّ الْمِيَاهَ أَتَلَفَتِ الْكَثِيرَ مِنْ حَمُولَةِ السَّفِينَةِ،
لَكِنِّي تَمَكَّنْتُ مِنْ أَخْذِ بَعْضِ الْقُدُورِ النُّحَاسِيَّةِ وَبَعْضِ صِنَادِيقِ الْبَحَّارَةِ وَبَعْضِ بَرَامِيلِ
الشَّرَابِ وَبَعْضِ الْبَارُودِ. وَحَيْثُ إِنَّ السَّفِينَةَ كَانَتْ غَيْرَ مُسْتَقَرَّةٍ عَلَى الْإِطْلَاقِ، عَمِلْتُ بِسُرْعَةٍ
وَحَزَمْتُ كُلَّ شَيْءٍ عَلَى قَارِبِي الصَّغِيرِ.

وَتَطَلَّبَ الْأَمْرُ الْقِيَامَ بِالْعَدِيدِ مِنَ الرَّحَلَاتِ إِلَى السَّفِينَةِ لِنَقْلِ الْحَمُولَةِ إِلَى مُحِيْمِي. يَا
لَلتَّرَوَاتِ الَّتِي وَجَدْتُهَا عِنْدَمَا فَتَحْتُ أَخِيرًا الصِّنَادِيقَ، فَكَانَتْ مَمْلُوءَةً بِكُنُوزٍ غَيْرِ عَادِيَةٍ!
فَاحْتَوَى أَحَدُهَا عَلَى عُلْبَةٍ جَمِيلَةٍ مِنَ الرُّجَاجَاتِ الْمَمْلُوءَةِ بِأَشْرَبَةِ ذَاتِ نَكْهَاتٍ، وَكَانَتْ
لذِيذَةً بِالْفِعْلِ. وَكَانَ هُنَاكَ صُنْدُوقٌ آخَرٌ مَمْلُوءٌ بِالْحَلْوَى، وَأَيْضًا وَجَدْتُ فِي صُنْدُوقٍ آخَرَ
قُمْصَانًا جَدِيدَةً، وَاحْتَوَى آخَرَ صُنْدُوقٍ فَتَحْتُهُ عَلَى ثَلَاثِ أَكْيَاسٍ كَبِيرَةٍ مِنَ الذَّهَبِ، وَجَدْتُهَا
بِجَوَارِ زَوْجَيْنِ مِنَ الْأَحْذِيَّةِ! خَزَنْتُ الْكَثِيرَ مِنْ هَذِهِ التَّرَوَاتِ الْجَدِيدَةِ فِي كَهْفِي، كَيْ أَطْمَئِنَّ
أَنَّهَا فِي مَأْمَنٍ.

لَمْ تَسْتَمِرَّ إِثَارَتِي بِهِذِهِ الْإِكْتِشَافَاتِ لِأَكْثَرَ مِنْ يَوْمَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ، إِذْ أَكَلْتُ كُلَّ الْحَلْوَى
وَشَرِبْتُ كُلَّ الْمَشْرُوبَاتِ الْمُسْكِرَةِ، وَعَادَتِ حَيَاتِي كَمَا كَانَتْ، وَعُدْتُ لِاتَّفَقْدِ الْمَكَانِ مِنْ
أَعْلَى كُلِّ صَبَاحٍ. لَكِنَّ شَيْئًا اخْتَلَفَ الْآنَ، إِذْ لَسَيَّ كُلِّي الْجَدِيدُ لِيُرَافِقَنِي، وَأَسْمَيْتُهُ سَكَرَانِي،
وَكَانَ رَفِيقًا صَغِيرًا وَبَارِعًا.

وَبَعْدَ تَحَطُّمِ السَّفِينَةِ، سُرِعَانَ مَا احْتَفَلْتُ بِالْعَامِ الرَّابِعِ وَالْعِشْرِينَ لِنُزُولِي عَلَى
الْجَزِيرَةِ. وَمَرَّتْ عَلَيَّ السَّاعَاتُ فِي هَذَا الْيَوْمِ وَأَنَا جَالِسٌ أَفَكِّرُ فِي كُلِّ مَا حَدَثَ. كَانَتْ سَنَوَاتٌ
سَعِيدَةٌ مِنَ الْعَمَلِ الشَّاقِّ وَالنَّجَاحَاتِ الْكَثِيرَةِ. لَكِنِّي الْآنَ أَقْضِي الْكَثِيرَ مِنَ الْوَقْتِ قَلِقًا

تَحَطُّمْ سَفِينَةَ أُخْرَى

مَنْ أَنْ يَكْتَشِفَ أَهْلُ الْجَزِيرَةِ وَجُودِي، مِمَّا صَعَّبَ عَلَيَّ الْإِسْتِمْتَاعَ بِحَيَاتِي. مَرَّ احْتِفَالِي
السَّنَوِيُّ وَأَقْنَعْتُ نَفْسِي أَنَّهُ قَدْ آنَ وَقْتُ الْفِرَارِ. لَكِنْ كَيْفَ لِي أَنْ أَتْرِكَ الْجَزِيرَةَ؟
قَضَيْتُ الْمَوْسِمَ الْمُطْمَئِنِّ بِأَكْمَلِهِ هَذَا الْعَامَ وَأَنَا أَفْكَرُ وَأُحْطِطُّ لِلْهُرُوبِ. وَكَانَ أَهْلُ
الْجَزِيرَةِ هُمْ مَنْ سَيُرْشِدُونَنِي، فَلَوْ اسْتَطَعْتُ إِقَامَةَ سَلَامٍ مَعَهُمْ، سَيُمْكِنُهُمْ إِطْلَاعِي عَلَى
سَبِيلِ الْخُرُوجِ مِنَ الْجَزِيرَةِ.
هَلْ سَيَنْجِحُ الْأَمْرُ؟ هَلْ أَسْتَطِيعُ إِقَامَةَ صَدَاقَاتٍ مَعَهُمْ؟

روبسون يُقابل «جمعة»

مَرَّتْ شُهُورٌ كَثِيرَةٌ قَبْلَ أَنْ يُجِيبَ الْقَدْرُ عَنْ أَسْئَلَتِي؛ فَذَاتَ صَبَاحٍ، لَمْ يَطُلْ مُكْثِي فِي الْخَارِجِ قَبْلَ أَنْ أَكْتَشِفَ الزَّوَارِقَ. لَقَدْ عَادَ أَهْلُ الْجَزِيرَةِ! وَكَانُوا يُخَيِّمُونَ فِي ذَاتِ الْمَكَانِ كَمَا فَعَلُوا مِنْذُ بَضْعِ سِنِينَ. اخْتَبَأْتُ تَارَةً أُخْرَى مِنْهُمْ وَشَاهَدْتُهُمْ مِنْ عَلَى بُعْدٍ.

وَكَانَ مَعَهُمْ سَجِينَانِ مَسْكِينَانِ مُقِيدَانِ بِجِبَالٍ مَصْنُوعَةٍ مِنْ نَبَاتِ الْكَرْمَةِ، وَبَدَأَ عَلَيْهِمَا الرُّعْبُ الشَّدِيدُ. أَدْرَكْتُ حِينَهَا أَنَّهُ لَا أَمَلَ فِي إِقَامَةِ صِدَاقَاتٍ مَعَ هَؤُلَاءِ الرَّجَالِ الْمُخِيفِينَ. وَكَانَ هُنَاكَ عَلَى الْأَقْلِ ثَلَاثُونَ رَجُلًا مِنْهُمْ! وَكَانُوا يُصْدِرُونَ الْكَثِيرَ مِنَ الْأَصْوَاتِ الْغَرِيبَةِ. وَقَامَ رَجُلٌ صَخْمُ الْجُبَّةِ بِطَرِحِ أَحَدِ السَّجِينِينَ أَرْضًا بِيَدَيْهِ. وَبَعْدَمَا رَأَهُ رَفِيقُهُ وَهُوَ يَتَلَقَّى الضَّرْبَ، انْتَهَزَ فُرْصَةَ عُمْرِهِ وَأَسْرَعَ مُبْتَعِدًا. كَانَ يَرْكُضُ أَسْرَعَ مِنْ أَيِّ رَجُلٍ رَأَيْتُهُ يَرْكُضُ مِنْ قَبْلُ فِي حَيَاتِي! وَقَبْلَ أَنْ أُدْرِكَ مَا يَحْدُثُ، حَوَّلَ الرَّجُلُ اتِّجَاهَهُ رَاكِضًا نَحْوِي.

كَادَ قَلْبِي يَتَوَقَّفُ، وَدَارَ فِي عَقْلِي: «هَذِهِ هِيَ النِّهَايَةُ، سَوْفَ يَجِدُونَنِي الْآنَ، وَسَيُؤَدُّونَنِي.»

طَارَدَ رَجُلَانِ آخَرَانِ السَّجِينِ، وَاقْتَرَبُوا كُلُّهُمُ مِنِّي أَكْثَرَ وَأَكْثَرَ. وَفِي عَمَضَةِ عَيْنٍ، حَسَمْتُ أَمْرِي بِمُسَاعَدَةِ الرَّجُلِ الْمَسْكِينِ. وَتَرَبَّصْتُ فِي الْأَجْمَةِ وَانْتَبَهْتُ إِلَى أَنْ جَاءَتِ اللَّحْظَةُ الْمُنَاسِبَةُ. جَرَى السَّجِينُ بِجَوَارِي، ثُمَّ تَقَدَّمْتُ بِخَفَّةٍ وَأَوْقَعْتُ أَحَدَ الرَّجُلَيْنِ اللَّذَيْنِ يُطَارِدَانِهِ، بَيْنَمَا حَاوَلَ الرَّجُلُ الثَّانِي الْإِمْسَاكَ بِي، لَكِنِّي اسْتَطَعْتُ أَنْ أَفْقِدَهُ الْوَعْيَ. وَاسْتَدَارَ السَّجِينُ وَرَأَنِي هُنَاكَ.

قُلْتُ لَهُ، مَعَ عِلْمِي بِأَنَّهُ رَبَّمَا لَا يَفْهَمُنِي: «لَا تَقْلُقْ! سَوْفَ أَسَاعِدُكَ!»

تَرَدَّدَ الرَّجُلُ لِدَقِيقَةٍ، ثُمَّ هَرَعَ عَائِدًا إِلَيَّ. فَقُلْتُ لَهُ: «سَاعِدْنِي كَمَا أَقِيدُهُمَا، كَمَا لَا يَفْعِدِرَا عَلَيَّ إِذَا بَكَتَ بَعْدَ الْآنَ.» فِي الْبِدَايَةِ لَمْ يَفْهَمْ، لَكِنْ بَعْدَ مَا فَكَّكْتُ قُبُودَ مَعْصَمِيهِ مِنَ الْجِبَالِ وَأَشْرْتُ إِلَى الرَّجُلَيْنِ، قَيَّدْنَاهُمَا مُسْتَحْدِمِينَ نَفْسَ نَوْعِ الْجِبَالِ، وَبِهَذَا لَنْ يَتَمَكَّنَا مِنَ الْحَرَكَةِ لِمُدَّةٍ طَوِيلَةٍ جِدًّا!

قُلْتُ لَهُ: «هَيَّا! عَلَيْنَا الْخُرُوجُ مِنْ هُنَا.»

أَحْضَرْتُ الرَّجُلَ إِلَى كَهْفِي. وَبَعْدَ مَا اسْتَطَعْنَا أَنْ نَزْتَا حَاجِزًا أَحْيَرًا، أَعْطَيْتُهُ بَعْضَ الطَّعَامِ وَالْمَاءِ؛ فَكَانَ فِي غَايَةِ الْعَطَشِ وَالْجُوعِ.

وَسَأَلْتُهُ: «مَا اسْمُكَ؟»

فَأَجَابَنِي بِلُغَتِهِ.

قُلْتُ لَهُ: «سَوْفَ أَدْعُوكَ «جمعة»، لِأَنِّي أَنْقَذْتُكَ فِي هَذَا الْيَوْمِ، يَوْمَ الْجُمُعَةِ!»

ابْتَسَمَ الرَّجُلُ لِي وَأَوْمَأَ بِرَأْسِهِ. وَأَشْرْتُ إِلَى صَدْرِي قَائِلًا: «اسْمِي رُوبِنْسُونُ، رُوبِنْسُونُ

كروزو.»

وَقَبَّلَ أَنْ يَتَمَكَّنَ مِنْ مَنَعِ نَفْسِهِ، أَطْلَقَ جَمْعَةً تَنَاقُوبًا كَبِيرًا وَهَائِلًا، فَضَحِكْتُ عَلِيًّا وَقُلْتُ لَهُ: «لَا بَدَّ أَنَّكَ مُتَعَبٌ جِدًّا.» وَأَرَيْتُهُ حَصِيرَةَ نَوْمٍ مِنَ الْقَشِّ كُنْتُ أَتْرُكُهَا فِي الْكَهْفِ وَقُلْتُ لَهُ: «وَالْآنَ، لِمَ لَا تَغْفُو قَلِيلًا؟»

ابْتَسَمَ لِي جَمْعَةً، مُدْرِكًا تَمَامًا مَا قَصَدْتُهُ، فَسَارَ إِلَى الْحَصِيرَةِ وَغَرِقَ فِي النَّوْمِ مُبَاشَرَةً. وَجَلَسْتُ هُنَاكَ أَشَاهِدُهُ وَحَسَبُ لِبَعْضِ الْوَقْتِ، فَبِالرُّغْمِ مِنْ مَعْرِفَتِي مِنْ عَدَمِ فَهْمِهِ لِي وَعَدَمِ فَهْمِي لَهُ، إِلَّا أَنَّهُ مِنَ الرَّائِعِ أَنْ يَكُونَ مَعَكَ شَخْصٌ لِيَتَحَدَّثَ إِلَيْهِ. وَكَانَ جَمْعَةً رَجُلًا طَوِيلَ الْقَامَةِ لِلْغَايَةِ، وَكَانَ لَهُ شَعْرٌ طَوِيلٌ وَدَاكِنٌ يَنْسَابُ عَلَى ظَهْرِهِ، وَكَانَ يَزِيدِي مَلَابِسَ مِنَ الْجِلْدِ هُوَ الْأَحْرُ، لِكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَزِيدِي الْكَثِيرَ مِثْلِي.

وَفِي الْيَوْمِ التَّالِيِ، رَجَعْتُ إِلَى الْكَهْفِ الْمُحْصَصِ لِلطَّهْيِ فَوَجَدْتُ جَمْعَةً مَا زَالَ هُنَاكَ. وَفِي الْحَقِيقَةِ، وَعَلَى مَرِّ الْأَيَّامِ الْقَلِيلَةِ التَّالِيَةِ، فُوجِئْتُ لِمَعْرِفَةِ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَزِغُبُ فِي الْعُودَةِ لَوْطِنِهِ عَلَى الْإِطْلَاقِ. عَمَلْنَا بِحِدٍّ لَأَكْثَرَ مِنْ شَهْرَيْنِ جَنبًا لِحَبْنِ، وَتَوَافَقْنَا عَلَى نَحْوِ جَيِّدٍ، حَتَّى وَلَوْ لَمْ نَكُنْ نَتَحَدَّثُ نَفْسَ اللُّغَةِ.

الْحَيَاةُ مَعَ صَدِيقٍ

قَضَيْتُ أَنَا وَجَمْعَةُ الثَّلَاثِ سَنَوَاتِ التَّالِيَةِ نَحْيًا وَنَعْمَلُ مَعًا، وَاتَّبَعْنَا رُوتِينًا مَرِيحًا جَدًّا؛
فَعِي أَوْقَاتِ الصَّبَاحِ نَسْتَطْلِعُ الْجَزِيرَةَ لِلتَّأَكُّدِ أَنَّ أَهْلَهَا لَمْ يَعُودُوا، وَفِي أَوْقَاتِ الظَّهِيرَةِ،
نَعْمَلُ فِي الْمَرْزَعَةِ أَوْ نَعْتَنِي بِالْمَحَاصِلِ أَوْ نَحْلِبُ الْمَاعِزَ أَوْ نَقْطِفُ الْفَاكِهَةَ. أَمَّا فِي أَوْقَاتِ
الْمَسَاءِ، فَنَعُدُّ عِشَاءَنَا وَأَعْلَمُ جَمْعَةَ اللُّغَةِ الَّتِي أَنْحَدْتُهَا. وَوَثِقْتُ فِيهِ ثَقَّةً عَمِيَاءَ.
فَهَا هُوَ الْقَدْرُ قَدْ اسْتَجَابَ لِابْتِهَالَاتِي، وَلَمْ أَعُدْ وَحِيدًا. فَوُجِدُ جَمْعَةَ مَعِي فَحَسَبُ
كَانَ كَفِيلاً بِالتَّخْفِيفِ مِنْ خَوْفِي مِنْ أَنْ يَجِدَنِي أَحَدٌ. وَبِالتَّأَكُّدِ وَجُودُنَا نَحْنُ الْإِثْنَيْنِ مَعًا
كَانَ يُعَزِّزُ مِنْ فُرْصَتِنَا لِجَمَاعِيَةِ أَنْفُسِنَا مِنْ أَهْلِ الْجَزِيرَةِ، مِمَّا جَعَلَنِي أَيْضًا أَفْكَرَ أَكْثَرَ
وَأَكْثَرَ فِي الْهُرُوبِ. سَأَلْتُ جَمْعَةَ أَسْئَلَةً كَثِيرَةً خِلَالَ هَذَا الْوَقْتِ: أَيْنَ نَحْنُ؟ وَمَنْ هُمْ قَوْمُهُ؟
وَمَا الْجُزُرُ الْقَرِيبَةُ مِنَّا؟ وَهَلْ يَسْتَأْتِقُ إِلَى عَائِلَتِهِ؟ وَهَلْ تَبَحُّثُ عَائِلَتُهُ عَنْهُ؟
وَفِي الْأَعْلَبِ، كَانَتْ إِجَابَتُهُ عَلَيَّ فِي ابْتِسَامَةٍ وَإِيمَاءَةٍ، حَتَّى تَعَلَّمَ لُغَتِي وَاسْتَطَاعَ
إِجَابَتِي.

فَسَأَلْتُهُ: «كَيْفَ لَا تُرِيدُ الذَّهَابَ لِوَطْنِكَ، لِجَزِيرَتِكَ؟»

– «مُنْذُ زَمَنٍ بَعِيدٍ، تَرَكْتُ مَنْزِلِي، فَرَعَبْتُ أَنْ أَرَى الْعَالَمَ. لَكِنَّ أَبِي غَضِبَ مِنِّي بِشِدَّةٍ،
وَلَمْ يَرِدْ لِي الذَّهَابَ، وَكُنْتُ فِي طَرِيقِي لِأَحْطَى بِرِحْلَةٍ بَحْرِيَّةٍ عَظِيمَةٍ حِينَ أَمْسَكَ بِي أَهْلُ
الْجَزِيرَةِ، ثُمَّ أَنْقَذْتَ أَنْتَ حَيَاتِي.»
– «هَلْ تَفْتَقِدُ وَالِدَكَ؟»

فَكَرَّ جَمْعَةُ لِذَقِيقَةٍ ثُمَّ قَالَ: «نَعَمْ، أَفْتَقِدُهُ بِالْفِعْلِ، وَأَفْتَقِدُ جَزِيرَتِي. لَكِنِّي أُحِبُّ
الْوَضْعَ هَا هُنَا، وَأُحِبُّ الْعَيْشَ هَا هُنَا، وَأُحِبُّ الْعَمَلَ فِي الْمَرْزَعَةِ. فَالْأَمْرُ مُخْتَلِفٌ جَدًّا.»

ابْتَسَمْتُ لَهُ قَائِلًا: «إِذَنْ فَأَنْتُ تُرِيدُ الْبَقَاءَ؟»

وَانْفَعَرَ فَمُهُ عَنِ ابْتِسَامَةِ عَرِيضَةٍ وَقَالَ: «بِالطَّبَعِ أَوْدُ ذَلِكَ! فَهَذِهِ فُرْصَةُ الْعُمْرِ، أَنْ

أَحْظَى بِهَذِهِ الْمُعَامَرَةِ!»

قُلْتُ لَهُ: «التَّشَابُهُ بَيْنَنَا كَبِيرٌ، فَهَكَذَا انْتَهَى بِي الْمَطَافُ عَلَى الْجَزِيرَةِ أَنَا الْآخِرُ، فَقَدْ

تَرَكْتُ وَطَنِي لِأَحْظَى بِمُعَامَرَةِ كُبْرَى؛ وَاسْتَقَرُّرْتُ هُنَا مُنْذُ أَكْثَرَ مِنْ عِشْرِينَ عَامًا.»

قَضَيْتُ سَاعَاتٍ أَحْكِي فِيهَا لَجْمَةَ عَنْ حَيَاتِي قَبْلَ الْجَزِيرَةِ، وَعَنْ نَشَاتِي فِي إِنْجِلْتْرَا،

وَعَنْ مَزْرَعَتِي فِي الْبَرَاذِيلِ. وَأَخْبَرَنِي هُوَ عَنْ حَيَاتِهِ، وَعَنْ عَائِلَتِهِ، وَعَنْ كَيْفَ كَانَتْ الْحَيَاةُ

عَلَى الْجَزِيرَةِ الَّتِي قَدِمَ مِنْهَا. وَظَهَرَتْ بَيْنَنَا أَشْيَاءُ مُشْتَرَكَةٌ كَثِيرَةٌ، بِالرُّغْمِ مِنْ أَنَّ مَسْقَطَ

رَأْسِنَا فِي أَمَاكِنَ شَدِيدَةِ الْإِخْتِلَافِ. وَأَصْبَحْنَا أَفْضَلَ صَدِيقَيْنِ.

– «لَقَدْ كَانَ مُقَدَّرًا لَنَا أَنْ نَعْدُو صَدِيقَيْنِ حَمِيمَيْنِ يَا رُوبِنْسُونِ! وَأَنَا لَسْتُ قَلِقًا، فَأَنَا

وَاثِقٌ أَنْ كُلَّ شَيْءٍ سَيَنْصَلِحُ.»

جَلَسْنَا صَامِتَيْنِ فِي حَيْمَتِنَا بَعْدَ ذَلِكَ لِفَتْرَةٍ، كُلُّ مَنَا يُفَكِّرُ كَيْفَ انْتَهَى بِهِ الْمَطَافُ

هُنَا، وَغَرِقَ كُلُّ مَنَا فِي أَفْكَارِهِ عَنْ حَيَاةِ الْمُعَامِرِ.

وَسَأَلْتُ جَمْعَةَ: «هَلْ حَدَثَ أَنْ انْجَرَفَ أَيُّ مِنْ قَوْمِكَ فِي الْبَحْرِ بِقَوَارِبِهِمْ؟»

فَأَجَابَ: «لَا، لَا أَظُنُّ ذَلِكَ. فَتَحْنُ نَجْدُفُ مَعَ الْمَدِّ، وَكُلُّ شَيْءٍ عَلَى مَا يَرَامُ، وَالنَّهْرُ

يَجْرِي فِي كُلِّ الْأَحْوَالِ.»

فِي الْبِدَايَةِ، لَمْ أَفْهَمْ مَقْصِدَهُ. أَيُّ نَهْرٍ؟ نَعَمْ بِالطَّبَعِ! أَدْرَكْتُ أَنَّهُ لَا بَدَّ أَنَّهُ يَقْصِدُ نَهْرَ

أُورِينُوكُو الْعَظِيمِ، فَلَا بَدَّ أَنَّ جَزِيرَتِي قَرِيبَةٌ مِنْ تَرِينِيدَادِ.

أَشْرْتُ إِلَى لِحْيَتِي وَسَأَلْتُهُ: «هَلْ رَأَيْتَ رِجَالًا كَثِيرِينَ مِنْي مِنْ قَبْلُ؟»

فَكَّرَ جَمْعَةُ فِي الْأَمْرِ لِدَقِيقَةٍ، ثُمَّ أَجَابَ: «فِي مَكَانٍ بَعِيدٍ كُلِّ الْبُعْدِ، يَبْعُدُ كَثِيرًا عَنْ

قَوْمِي، وَيَبْعُدُ كَثِيرًا عَنْ هُنَا، يُوجَدُ رِجَالٌ بِلْحَى؛ رِجَالٌ بِلْحَى طَوِيلَةٍ وَوُجُوهُ شَاحِبَةٍ،

مِثْلَكَ بِالضُّبُطِ، أَجَلٌ.»

أَشْعَلْتُ كَلِمَاتُ جَمْعَةَ حَمَاسَتِي وَقُلْتُ لَهُ: «هَلْ تَظُنُّ أَنَّ بِمَقْدُورِنَا نَحْنُ أَنْ نُبْجَرَ مِنْ

هُنَا إِلَى هُنَاكَ بِقَارِبِي الصَّغِيرِ؟»

هَزَّ رَأْسَهُ نَفْيًا، وَانْخَفَضَتْ مَعْنَوِيَّاتِي، وَقَالَ: «لَيْسَ فِي الْقَارِبِ الصَّغِيرِ، لَا، لَكِنْ

يُمْكِنُنَا الْإِبْحَارُ فِي قَارِبٍ أَكْبَرَ؛ قَارِبٍ كَبِيرٍ، فِي حَجْمِ زُورَقَيْنِ.»

انْفَعَرَ فَمِي عَنْ ابْتِسَامَةِ عَرِيضَةٍ، وَخَبَطْتُ جُمُعَةً عَلَى ظَهْرِهِ مِنْ فَرِطٍ سَعَادَتِي، وَنَظَرَ إِلَيَّ كَمَا لَوْ كُنْتُ مَجْنُونًا، لَكِنِّي لَمْ أَبَالِ. فَلَوْلَ مَرَّةٍ مُنْذُ أَكْثَرَ مِنْ عَشْرِينَ عَامًا، بَاتَتْ لَدَيَّ فِكْرَةٌ عَنْ مَكَانِ إِقَامَتِي، وَلَدَيَّ فِكْرَةٌ عَنْ مَكَانِ جَزِيرَتِي مِنَ الْعَالَمِ. لَمْ أَكُنْ وَحِيدًا، وَكَانَ لَدَيَّ أَمَلٌ فِي الْعُودَةِ لَوَطْنِي.

وَفِي سَاعَةٍ هَادِيَةٍ بَعْدَ الظَّهْرِ، خِلَالَ مَوْسِمِ الْجَفَافِ، سِرْتُ أَنَا وَجُمُعَةٌ لِمَسَافَةٍ طَوِيلَةٍ نَزُولًا إِلَى الشَّاطِئِ حَيْثُ رَأَيْتُ ذَاتَ مَرَّةٍ أَثَرَ قَدَمٍ. أَرَدْتُ أَنْ أَرِيَهُ أَجْزَاءَ السَّفِينَةِ الْقَدِيمَةِ الَّتِي فَكَّكْتُهَا وَخَبَّأْتُهَا طَوَالَ تِلْكَ السَّنَوَاتِ الْمَاضِيَةِ.

تَفَحَّصَ جُمُعَةٌ حُطَامَ السَّفِينَةِ لِفِتْرَةِ طَوِيلَةٍ، وَأَخَذَ يُقَلِّبُ فِي الْأَجْزَاءِ لِيَرَى أَسْفَلَهَا، وَلَفَّ حَوْلَهَا لِأَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ. ثُمَّ وَضَعَ يَدَهُ عَلَى نَقْصِهِ وَقَالَ: «لَقَدْ رَأَيْتُ سَفِينَةً مِثْلَ هَذِهِ مِنْ قَبْلِ يَا رُوبِنْسُون.»

انْدَهَشْتُ جِدًّا لِسَمَاعِ هَذَا الْكَلَامِ، فَسَأَلْتُهُ: «مَاذَا تَعْنِي؟»

نَظَرَ إِلَيَّ جُمُعَةٌ مُجِيبًا: «مُنْذُ أَرْبَعِ سَنَوَاتٍ. أَجَلٌ، كَانَ ذَلِكَ مُنْذُ أَرْبَعِ سَنَوَاتٍ، هَبَطَ سَبْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا عَلَى جَزِيرَتِي.» وَاسْتَمَرَ جُمُعَةٌ فِي حَدِيثِهِ لِيُخْبِرَنِي أَنَّ هَؤُلَاءِ الرِّجَالَ لَا يَرَالُونَ هُنَاكَ، يَعْيشُونَ عَلَى جَزِيرَتِهِ، بِالْقُرْبِ مِنْ قَوْمِهِ.

قُلْتُ لَهُ: «لَا بُدَّ أَنَّهُمُ الرِّجَالُ الَّذِينَ كَانُوا عَلَى مَتْنِ السَّفِينَةِ الَّتِي شَهِدْتُهَا بَعْدَ تَحَطُّمِهَا!» ثُمَّ أَخْبَرْتَهُ كُلَّ شَيْءٍ عَنِ سَمَاعِي لِطَلَقَاتِ الْمُدْفَعِ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ، ثُمَّ طَلَقَاتِ النَّارِ، وَاسْتَطْرَدْتُ: «لَكِنْ عِنْدَ انْقِشَاعِ الضُّبَابِ وَنُزُولِي إِلَى الشَّاطِئِ، كُلُّ مَا وَجَدْتُهُ هُوَ سَفِينَةٌ أُخْرَى مُحَطَّمَةٌ! كَمْ مِنَ الرَّائِعِ أَنَّ كُلَّ هَؤُلَاءِ الرِّجَالَ لَمْ يَمُوتُوا فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ كَمَا ظَنَنْتُ!» وَبَدَأْنَا فِي السَّيْرِ عَائِدِينَ إِلَى الْمُحَيِّمِ، كِلَانَا مُسْتَعْرِقٌ فِي أَفْكَارِهِ. وَكَانَتْ مِشِيَّةً هَادِيَةً، لَمْ أَقُلْ أَيَّ شَيْءٍ لِصَدِيقِي إِلَى مَا بَعْدَ الْعُشَاءِ.

وَقُلْتُ لِجُمُعَةٍ قَاطِعًا أَمْرِي: «عَلَيْنَا الْعُودَةُ إِلَى جَزِيرَتِكَ يَا جُمُعَةُ!»

هَلْ يُمَكِّنُنَا مُغَادِرَةَ الْجَزِيرَةِ؟

كُنَّا فِي حَاجَةٍ إِلَى قَارِبٍ لِنُغَادِرَ الْجَزِيرَةَ؛ فَالْقَارِبَانِ اللَّذَانِ صَنَعْتُهُمَا لَنْ يَكُونَا ذَوِي نَفْعٍ لِمِثْلِ هَذِهِ الرَّحَلَةِ الطَّوِيلَةِ (وَبِالنِّسْبَةِ لِقَارِبِي الْأَوَّلِ فَلَا يَزَالُ مَتْرُوكًا عَلَى الْيَابَسَةِ فِي مُنْتَصَفِ الْغَابَةِ).

سَأَلْتُ جَمْعَةَ ذَاتَ صَبَاحٍ بَيْنَمَا نَتَنَاوَلُ إِفْطَارَنَا: «هَلْ تَظُنُّ أَنَّ بِإِمْكَانِكَ مُسَاعَدَتِي فِي صُنْعِ سَفِينَةٍ مِثْلِ الَّتِي رَأَيْتَهَا مُنْذُ أَرْبَعِ سَنَوَاتٍ؟»
وَأَجَابَ: «أَجَلْ، فَلَا أَرَى مَانِعًا. وَمَعَ أَنِّي غَيْرُ مُتَأَكِّدٍ كَيْفَ، لَكِنِّي مُتَأَكِّدٌ أَنَّكَ قَادِرٌ عَلَى تَعْلِيمِي؛ أَلَيْسَ كَذَلِكَ يَا رُوبِنْسُون؟»
فَقُلْتُ: «بِالطَّبَعِ! فَيَتَعَاوَنُنَا مَعًا سَوْفَ نَسْتَطِيعُ بِنَاءَ قَارِبٍ جَيِّدٍ يَحْمِلُنَا لِنَعُودَ بِهِ إِلَى جَزِيرَتِكَ.

قَطَعْنَا الْأَشْجَارَ، وَنَحْنُنَا أَلْوَاحَ الخَشَبِ، وَفَرَعْنَا الْقَاعَ. عَمَلْنَا وَتَعَبْنَا. وَمَرَّتِ الشُّهُورُ وَبَدَأَ مَرْكَبُنَا يَأْخُذُ شَكْلًا بَاطِئًا. وَعَمَلْنَا طَوَالَ مَوْسِمِ الْجَفَافِ كُلِّهِ بِلَا تَوَقُّفٍ وَلَوْ لِيَوْمٍ وَاحِدٍ. وَبِمَجْرَدِ انْتِهَاءِ الْعَمَلِ فِي الْقَارِبِ، بَدَلْنَا كُلَّ جُهُودِنَا لِزَحْرَحَتِهِ شَيْئًا فَشَيْنًا إِلَى الْمَاءِ. وَحَقًّا لَمْ نَرَ قَطُّ رَجُلَيْنِ أَسْعَدَ مِنَّا يَوْمًا أَنْ طَفَا الْقَارِبُ عَلَى صَفْحَةِ الْمَاءِ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ!
كَانَ جَمْعَةُ وَاثِقًا أَنْ بِاسْتَطَاعَتِنَا اسْتِخْدَامَ مَجَادِيفِنَا حَتَّى نَصِلَ إِلَى الْبَرِّ الرَّئِيسِيِّ، وَمَعَ ذَلِكَ فَكَانَ لَدَيَّ فِكْرَةٌ أَفْضَلُ؛ فَبَيْنَمَا قَطَعَ جَمْعَةُ شَجَرَةً أَرْزُ كَبِيرَةً كَيْ نَسْتَخْدِمَهَا كِصَارًا، جَلَسْتُ وَخَطْتُ جَمِيعَ أَجْزَاءِ الخَيْمَةِ الَّتِي احْتَفَظْتُ بِهَا عَلَى مَدَى هَذِهِ السَّنَوَاتِ. وَوَضَعْنَا الصَّارِي وَأَقَمْنَا الشَّرَاعَ، وَأَصْبَحَ المَرْكَبُ الآنَ جَاهِرًا لَجَوْلَةٍ لِلتَّجْرِبَةِ! أَبْحَرْتُ أَنَا

وجمعة حَوْلَ الْمَرْفَأِ إِذْ عَلَّمْتُهُ كَيْفَ يُبْحِرُ. وَكَحَالِهِ مَعَ كُلِّ شَيْءٍ آخَرَ أَرَيْتُهُ كَيْفَ يَقُومُ بِهِ، وَجَدْتُهُ سَرِيعَ التَّعَلُّمِ، حَتَّى عَرَفَ جَمْعَةَ سَرِيعًا كَيْفَ يَتَحَكَّمُ فِي الْمَرْكَبِ تَقْرِيبًا بِنَفْسِ جَوْدَةٍ تَحْكُمِي فِيهِ.

بَعْدَ ذَلِكَ اضْطَرَرْنَا إِلَى أَنْ نَنْظَلَ فِي مَنْزِلِنَا فِي الْمَوْسِمِ الْمُمْطِرِ، وَأَرَدْنَا حِمَايَةَ الْمَرْكَبِ مِنْ ظُرُوفِ الطَّقْسِ. فَحَفَرْنَا حَوْضًا صَغِيرًا لِلْمَرْكَبِ مِنَ الْيَابِسَةِ بِالْقُرْبِ مِنَ الْجُدُولِ، ثُمَّ حَرَصْنَا عَلَى بَقَائِهِ جَافًا عَبْرَ بِنَاءِ سَدِّ حَوْلَهُ وَتَغْطِيَةِ قِمَّتِهِ بِأَغْصَانٍ كَبِيرَةٍ كَامِلَةٍ لِتَكُونَ بِمَنْزِلَةِ سَقْفِ. وَالآنَ كُلُّ مَا تَبَقِيَ لَنَا فَعَلُهُ هُوَ انْتِظَارُ تَحْسُنِ الطَّقْسِ.

مَرَّ إِجْمَالِي سَبْعَ وَعَشْرِينَ عَامًا مُنْذُ أَنْ تَحَطَّمَ قَارِبِي وَالْقَيْتُ عَلَى الْجَزِيرَةِ، فَكَمْ هُوَ صَعْبٌ أَنْ أُصَدِّقَ مُرُورَ كُلِّ هَذَا الْوَقْتِ. جَلَسْتُ لِفَتْرَاتٍ طَوَالٍ مُتَسَائِلًا كَمْ تَغَيَّرَتِ الْحَيَاةُ يَا تُرَى فِي وَطَنِي، هَلْ لَا تَزَالُ مَزْرَعَتِي مَوْجُودَةً؟ هَلْ لَا يَزَالُ أَهْلِي عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ؟ هَلْ عَادَ أَحِي لِلْوَطَنِ؟ تَسَابَقَتْ هَذِهِ الْأَفْكَارُ بَيْنَ جَنْبَاتِ عَقْلِي مِثْلَ قَطْرَاتِ الْمُمْطِرِ، لَا يُوقِفُهَا شَيْءٌ سِوَى سَطُوعِ الشَّمْسِ.

الفصل الثامن والعشرون

التَّمَرُّدُ وَالْحَرِيَّةُ

تَوَقَّفتِ الْأَمْطَارُ، مِثْلَمَا كَانَ الْحَالُ عَلَى مَدَى مَوَاسِمَ عَدِيدَةٍ. وَبَدَأْتُ أَنَا وَجَمْعَةٌ فِي الْإِعْدَادِ بِجَدِيَّةٍ لِرِحْلَتِنَا. اعْتَنَيْنَا بِالْمَحْصُولِ عِنَايَةً جَيِّدَةً، وَبَدَأْنَا فِي تَرْتِيبِ جَمِيعِ الْمَوْنِ، وَلَمْ يَنْبَقْ سِوَى التَّأَكُّدِ مِنْ تَوَافُرِ الْغِذَاءِ الْكَافِي بِحَوْرَتِنَا. وَسَأَلْتُ جَمْعَةً: «هَلْ تَمَازُجُ فِي الذَّهَابِ إِلَى الْمَنْزِلِ الصَّيْفِيِّ وَتَجْمِيعِ بَعْضِ الزَّبِيبِ لَنَا؟»

فَأَجَابَ: «عَلَى الْإِطْلَاقِ، سَأَذْهَبُ مِنْ فَوْرِي.»
وَلَمْ تَكَدْ تَمْضِي سَاعَةٌ وَاحِدَةٌ حَتَّى سَمِعْتُهُ يَجْرِي عَلَى الطَّرِيقِ صَاعِدًا وَهُوَ يَصْرُخُ:
«رُوبِنْسُون! رُوبِنْسُون! أَقْبِلْ بِسُرْعَةٍ. يُوجَدُ مَرْكَبٌ هُنَا! مَرْكَبٌ!»
الْتَقَطْتُ بُنْدُقِيَّتَيْنِ وَأَنَا فِي طَرِيقِي خَارِجًا مِنَ الْبَابِ، وَالْقَيْتُ بِوَاحِدَةٍ لْجَمْعَةٍ، وَأَسْرَعْنَا إِلَى التَّلِّ الْعَالِي، وَاخْتَبَأْنَا بِهُدُوءٍ وَرَاقِبْنَا سَفِينَةً إِنْجِلِزِيَّةً وَهِيَ تُبْحِرُ نَحْوَ الْجَزِيرَةِ. وَهَمَسَ لِي جَمْعَةٌ: «مَاذَا تَطْنُنُهُمْ فَاعِلِينَ؟»

فَأَجَبْتُ: «لَسْتُ أَدْرِي، لَكِنَّهُ بِالتَّأَكُّيدِ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ، فَهَذَا لَيْسَ طَرِيقَ تِجَارَةٍ مُعْتَادٍ؛ وَلَمْ أَرِ سَفِينَةً إِنْجِلِزِيَّةً لِمَا يُقَارَبُ ثَلَاثِينَ سَنَةً.»
أَلْقَتِ السَّفِينَةُ بِمِرْسَاتِهَا عَلَى الشَّاطِئِ مُبَاشَرَةً، وَجَرَ مَجْمُوعَةً مِنَ الرِّجَالِ الْغَاضِبِينَ حَادِي الطَّبَاعِ ثَلَاثَةَ أَسْرَى مِنَ السَّفِينَةِ إِلَى الشَّاطِئِ. وَكَانَتْ أَيْدِيهِمْ وَأَقْدَامُهُمْ مُقَيَّدَةً، ثُمَّ تَرَكَ الْأَشْرَارُ هَوْلَاءَ الرِّفَاقِ الْمَسَاكِينِ فِي حَرَارَةِ الشَّمْسِ بِلَا غِذَاءٍ وَلَا مَاءٍ فِي حِينِ ذَهَبُوا هُمْ لِيَسْتَكْشِفُوا الْجَزِيرَةَ.

أَشْرْتُ لجمعة بِأَنْ يَتَّبَعَنِي، وَتَسَلَّلْنَا بِبُطءٍ هُبُوطًا عَلَى الطَّرِيقِ إِلَى الشَّاطِئِ. وَحِينَ تَيَقَّنْتُ أَنْ لَا أَحَدَ بِجِوَارِنَا، تَسَلَّلْتُ إِلَى الرَّجَالِ وَسَأَلْتُهُمْ مَنْ هُمْ وَلِمَاذَا أَتَوْا إِلَى الْجَزِيرَةِ. فِي الْبِدَايَةِ ارْتَبَكُوا أَيَّمَا ارْتَبَاكِ، وَلَمْ يُجِيبُونِي عَلَى الْإِطْلَاقِ. فَلَا بُدَّ أَنْ مَنظَرِي بَدَأَ شَدِيدَ الْعَرَابَةِ لَهُمْ؛ كَأَنَّ سَانَ هَمَجِيٍّ وَمَجْنُونٍ يَظْهَرُ مِنَ الْعَدَمِ!

قُلْتُ لَهُمْ: «لَنْ أُوذِيَكُمْ، أَنَا هُنَا لِمُسَاعَدَتِكُمْ.» وَنَادَيْتُ عَلَى جمعة لِيَأْتِي، وَبِاسْتِخْدَامِ سَكِينِهِ قَطَعَ قُبُودَهُمْ. وَبَيْنَمَا كُنَّا نُحَرِّرُهُمْ، شَرَحَ لَنَا أَحَدُ الرَّجَالِ: «أَنَا قُبْطَانُ هَذِهِ السَّفِينَةِ الْعَظِيمَةِ، وَقَدْ حَدَثَ عَلَى مَنْنَهَا تَمَرُّدٌ، فَفَرَرْتُ طَاقَمُ السَّفِينَةِ الْإِبْحَارِ خَارِجَ الْمَسَارِ الْمُحَدَّدِ. وَهَكَذَا رَسَوْنَا هُنَا.»

قُلْتُ لَهُمْ: «تَعَالَوْا بِسُرْعَةٍ، عَلَيْنَا أَنْ نُبْعِدَ ثَلَاثَتَكُمْ عَنْ هُنَا قَبْلَ أَنْ يَعُودُوا.»

- «بِالْمُنَاسَبَةِ، أَنَا الْقُبْطَانُ وَالشَّ، أَمَا هَذَانِ الرَّجُلَانِ فَهَمَا نَائِبَايَ، مُورْجَانُ وَبَاسُ.»

- «أَنَا رُوبِنْسُونُ كَرُوزُو، وَهَذَا جمعة.»

الفصل التاسع والعشرون

الْأَخْذُ بِالذَّفَّةِ

دُونَ مُقَدَّمَاتٍ، جَرَيْنَا بِسُرْعَةٍ بِكُلِّ طَاقَتِنَا بَعِيدًا عَنِ الشَّاطِئِ، وَجَمَعَةَ فِي الْمُقَدَّمَةِ. وَمَا إِنَّا جَلَسْنَا بِأَمَانٍ عَلَى التَّلِّ الْعَالِي، حَتَّى أَخْبَرَنَا الْقُبْطَانُ بِقِصَّتِهِ بِتَفَاصِيلَ أَكْثَرَ. وَفِي النِّهَائِيَّةِ، تَبَيَّنَ أَنَّ رَجُلَيْنِ فَقَطُ هُمَا مَنْ تَسَبَّبَا فِي حُدُوثِ جَمِيعِ الْمَشَاكِلِ لِلْقُبْطَانِ الْمُسْكِينِ. فَهُمَا مَنْ أَقْنَعَا الْأَخْرِيْنَ بِالتَّمَرُّدِ وَالْآنَ يُضَلِّلَانِهِمْ بِالْكَلِّيَّةِ. وَاسْتَطَرَدَ الْقُبْطَانُ بِقَوْلِهِ إِنَّ الْحِطَّ الْحَسَنَ هُوَ مَا أَبْقَاهُمْ عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ؛ لِأَنَّهُمَا بَحَارَانِ غَيْرِ مَاهِرَيْنِ؛ فَهُمَا فِي الْحَقِيقَةِ لَا يَدْرِيَانِ شَيْئًا عَمَّا يَفْعَلَانِهِ.

– «فَكُلُّ مَا يَشْغَلُ تَفْكِيرُهُمَا هُوَ الذَّهَبُ؛ وَلَيْسَ سَلَامَةَ الْمَرْكَبِ، أَوْ حَيَاةَ بَاقِي الرَّجَالِ. وَكُلُّ مَا يُرِيدَانِهِ هُوَ الْمَالُ.»

سَأَلْتُ الْقُبْطَانَ وَالشَّ عَمَّا إِذَا كَانَ يَظُنُّ أَنَّ يَعُودَ بَاقِي رِجَالِهِ إِلَى إِخْلَاصِهِمْ لَهُ، إِذَا تَمَّ الْإِمْسَاكُ بِاللِّصِّينِ.

– «أَجَلٌ، أَظُنُّهُمْ سَيَفْعَلُونَ، فَلَا أَعْتَقِدُ أَنَّهُمْ فَرِحُونَ بِوُجُودِهِمْ فِي الْبَحْرِ بِلَا اتِّجَاهٍ وَاضِحٍ وَلَا خُطِّ لِلْعُودَةِ لِأَوْطَانِهِمْ.»

فَأَخْبَرْتُ الْقُبْطَانَ وَالشَّ أَنَّي يَسْعُدُنِي أَنَا وَجَمَعَةُ أَنَّ نُنَاصِرَهُ، لَكِنِّي كُنْتُ أَوْدُ مَعْرِفَةَ شَيْئَيْنِ فِي الْبِدَايَةِ.

– «هَلْ سَتَتَّبِعُ تَعْلِيمَاتِي وَتَدْعُنِي أَقُودُكَ فِي هَذِهِ الْمَعْرَكَةِ؟ وَفِي حَالِ انْتِصَرْنَا، هَلْ تَصْحَبُنِي أَنَا وَجَمَعَةُ لِنَعُودَ إِلَى إِنْجِلْتِرَا بِرِفْقَتِكَ؟»

وَأَفَقَ الْقُبْطَانُ وَالشَّ فِي الْحَالِ، وَجَلَسْنَا نَحْنُ الْخَمْسَةُ لِفَتْرَةٍ طَوِيلَةٍ وَابْتَكْرْنَا خُطَّةً مُحْكَمَةً لِلْعَايَةِ. فَغَالِبًا مَا يَقْضِي الْوَعْدَانِ الْوَقْتَ جَالِسَيْنِ فَحَسْبُ لِنَدْبِيرِ خُطِّهِمْ. وَاتَّفَقَ

الْقُبْطَانُ أَنْ فِي اسْتِطَاعَتِنَا عَلَى الْأَرْجَحِ أَسْرَهُمَا بِسُهُولَةٍ، ثُمَّ بَعْدَ الْإِطْمِئْنَانِ إِلَى تَقْيِيدِهِمَا، نُنْقِعُ بَاقِيَ الرَّجَالِ بِالْعُودَةِ لِلنِّظَامِ.

اصْطَحَبْنَا الْبَحَارَةَ لِكَهْفِي الْخَاصِّ بِالطَّهِي، حَيْثُ أَحْتَفِظُ بِبَاقِي بِنَادِي. وَأَعْطَيْتُ كُلَّ رَجُلٍ سِلَاحًا وَبَعْضَ الْبَارُودِ، تَحَسُّبًا لِاحْتِيَاجِنَا إِلَيْهِ. وَتَحَرَّكْنَا نَحْنُ الْخَمْسَةُ بِخَفَةِ كَالْهُوَاءِ لِنَعُودَ إِلَى الشَّاطِي، حَيْثُ يَعْفُو كُلُّ الرَّجَالِ، مُنْتَشِرِينَ بِطُولِ الشَّاطِي، وَقَدْ أَسْنَدَ بَعْضُهُمْ رَأْسَهُ عَلَى أَرْزَادِ الْأَشْجَارِ، وَرَقَدَ الْبَعْضُ فِي الشَّمْسِ وَحَسَبُ.

أَحْطْنَا بِالرَّجَالِ، وَعَدَدْتُ إِلَى ثَلَاثَةِ بِأَصَابِعِي، ثُمَّ أَطْلَقْنَا النَّارَ مِنْ بِنَادِينَا فِي الْهُوَاءِ فِي نَفْسِ الْوَقْتِ، فَفَقَزَ الرَّجَالُ، خَائِفِينَ وَمَصْدُومِينَ، وَلَمْ يَدْرُوا مَاذَا يَفْعَلُونَ!

وَصَحْتُ قَائِلًا: «الْقُوَاهُ أَسْلَحَتِكُمْ! الْقُوَاهُ الْآنَ قَبْلَ أَنْ نَطْلُقَ النَّارَ عَلَيْكُمْ جَمِيعًا!»
وَعَلَا صَوْتُ رَبْنٍ وَصَحَبِ الْعِدِيدِ مِنَ السَّاكِينِ، وَالسُّيُوفِ، وَالْأَعْمَادِ عِنْدَ ارْتِطَامِهَا بِالْأَرْضِ.

ثم أضفت: «وَالْبِنَادِقُ أَيْضًا، أَعْرِفْ أَنْ مَعَكُمْ بِنَادِقًا!» فَأَلْقَى قَلِيلٌ مِنْهُمْ أَسْلِحَتَهُمْ عَلَى مَضِضٍ.

وَاسْتَدْرْتُ لِلْقُبْطَانِ وَالشَّ قَائِلًا: «مِنَ الْوُعْدَانِ اللَّذَانِ اسْتَوَلِيَا عَلَى سَفِينَتِكَ يَا قُبْطَانُ وَالشُّ؟» فَأَشَارَ الْقُبْطَانُ بِإصْبَعِهِ إِلَى رَجُلَيْنِ مُرْتَعِدَيْنِ فِي وَسْطِ الْمَجْمُوعَةِ.

- «أَنْتُمَا، تَعَالِيَا هُنَا، الْآنَ!» تَرَدَّدَا فِي الْبِدَايَةِ، ثُمَّ حَاوَلَا الْفِرَارَ، لَكِنَّ جَمْعَةً كَانَتْ سَرِيعًا بِمَا يَكْفِي لِإِقْفَافِهِمَا. فَأَوْقَعَ الْأَوَّلُ ثُمَّ أَمْسَكَ بِالْآخِرِ قَبْلَ حَتَّى أَنْ يَصِلَ إِلَى الْأَشْجَارِ. وَقُلْتُ: «بِسُرْعَةٍ! هَيَّا لِنَقْيِدَهُمَا!» فَيَدَّ مَوْزَجَانُ وَبَاسُ أُيْدِيَهُمَا مَعًا بِاسْتِخْدَامِ بَعْضِ الْحَبَالِ الْمَصْنُوعَةِ مِنْ نَبَاتِ الْكُرْمَةِ.

- «جَمْعَةٌ، أَنْتَ تَعْلَمُ أَيْنَ سَتَذْهَبُ بِهِذَيْنِ الْهَمَجِيِّينَ!» فَأَوْمَأَ بِرَأْسِهِ وَأَشَارَ إِلَى بَاسِ وَمَوْزَجَانَ لِيُسَاعِدَاهُ.

وَبِمَجْرَدِ ابْتِعَادِهِمَا عَنْ مَرْمَى السَّمْعِ، تَحَدَّثَ الْقُبْطَانُ مَعَ رَجَالِهِ، فَقَالَ لَهُمْ إِمَّا أَنْ يَعُودُوا إِلَيْهِ أَوْ يَفْقِدُوا حَيَاتَهُمْ الْيَلِيَّةَ؛ وَكَانَ الْخِيَارُ لَهُمْ. فَطَاطَنُوا جَمِيعًا رُءُوسَهُمْ فِي خِزْيٍ مِنْ خِيَانَةٍ مِثْلِ هَذَا الرَّجُلِ الصَّالِحِ. وَأَخْبَرَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ الْقُبْطَانَ وَالشَّ أَنَّهُمْ سَيَتَبَعُونَهُ. وَاعْتَدَرَ الْكَثِيرُونَ عَلَى التَّمَرُّدِ، وَقَالُوا إِنَّهُمْ كَانُوا مُنْزَعَجِينَ بِشِدَّةٍ مِنْ جَرَاءِ مَا

فَعَلُوهُ، بَلْ إِنَّ أَحَدَهُمْ بَدَأَ يُنْشِدُ أُغْنِيَةَ «لَأَنَّهُ رَفِيقٌ صَالِحٌ وَمَرِحٌ» مِمَّا أَسْعَدَ الْقُبْطَانَ وَالشَّ
أَيَّمَا سَعَادَةٍ.

بِتَقْيِيدِ الْوَعْدَيْنِ بِإِحْكَامٍ فِي كَهْفِي الْخَاصِّ بِالطَّهْيِ، تَسَنَّتْ لِي وَلِلْقُبْطَانَ فُرْصَةٌ إِجْرَاءِ
حَدِيثٍ طَوِيلٍ وَشَائِقٍ، فَسَرْتُ بِالْقُبْطَانَ وَالشَّ فِي جَوْلَةٍ عَلَى جَزِيرَتِي، وَأَرَيْتُهُ مَرْزَعَتَنَا
النَّاجِحَةَ، وَأَنْبَهَرْتُ أَيَّمَا أَنْبَهَارٍ، فَلَمْ يَسْعُهُ التَّصْدِيقُ أَنَّني عَمِلْتُ الْكَثِيرَ بِمُفْرَدِي!

وَبَعْدَ قَضَاءِ زَمَنِ عَلَى الْجَزِيرَةِ، فَضَيْتُ أَنَا وَجَمْعَةٌ بَضْعَ سَاعَاتٍ لِحَزْمٍ كُلِّ شَيْءٍ
نَحْتَاجُهُ فِي الرَّحْلَةِ الْبَحْرِيَّةِ إِلَى إِنْجَلْتَرَا. وَقَالَ الْقُبْطَانُ إِنَّ لَدَيْهِ الْكَثِيرَ مِنَ الْمُونِ عَلَى ظَهْرِ
السَّفِينَةِ بِالْفِعْلِ، لَكِنَّهُ أَحَذَ بَعْضَ مِيَاهِ الشُّرْبِ وَالْكَثِيرَ مِنَ الْفَاكِهِةِ مِنْ مَنْزِلِي الصَّيْفِيِّ
مِنْ أَجْلِ رَحْلَةِ الْعُودَةِ، ثُمَّ أَغْطَانِي الْقُبْطَانُ الطَّيِّبُ قَمِيصًا نَظِيفًا وَبِنِطَالًا جَدِيدًا! وَكَانَا
رَائِعَيْنِ؛ فَقَدْ ظَلَمْتُ سَنَوَاتٍ لَا أَرْتَدِي سِوَى مَلَابِسٍ مِنْ جِلْدِ الْمَاعِزِ!

وَسَأَلْتُ جَمْعَةً وَنَحْنُ نَحْزِمُ أَمْنِعَتَنَا: «هَلْ أَنْتَ وَاثِقٌ أَنَّكَ لَا تَوُدُّ الْعُودَةَ لِمَوْطِنِكَ، إِلى
عَائِلَتِكَ؟»

فَأَجَابَنِي: «رُوْبِنْسُونُ، أَنَا قَرَّرْتُ مِنْذُ زَمَنِ بَعِيدٍ جِدًّا أَنِّي أُرِيدُ حَيَاةَ الْمُغَامَرَةِ، وَالْآنَ
لَدَيَّ الْفُرْصَةُ لِأَرَى دَوْلَةَ إِنْجَلْتَرَا الْعُظْمَى، وَلَنْ أَفُوتَ هَذِهِ الْفُرْصَةَ!»

قُلْتُ لَهُ: «أَهْ يَا جَمْعَةٌ! إِنَّني سَعِيدٌ جِدًّا لِسَمَاعِي بِأَنَّكَ سَتَأْتِي مَعِي، فَلَنْ يَكُونَ الْحَالُ
بِكَ كَمَا هُوَ بِدُونِكَ.»

أَتَى الْقُبْطَانُ وَالشَّ لِخَبْرِنَا أَنَّ سَفِينَتَهُ مُسْتَعِدَّةٌ لِلرَّحِيلِ، وَلَكِنْ لَمْ يَبْقَ سِوَى شَيْءٍ
وَاحِدٍ فَقَطْ كَانَ عَلَيَّ عَمَلُهُ قَبْلَ رَحِيلِنَا؛ وَهُوَ ذَهَابِي لِلرَّجُلَيْنِ الْمُقْيِيدَيْنِ فِي كَهْفِي الْخَاصِّ
بِالطَّهْيِ.

قُلْتُ لَهُمَا: «لَدَيْكُمَا خِيَارَانِ: الْعُودَةُ إِلَى إِنْجَلْتَرَا مَعَنَا، مُقْيِدَيْنِ وَمُصَفِّدَيْنِ، عَلَى أَنْ
تُحَاكَمَا وَتُطَبَّقَ عَلَيْكُمَا عُقُوبَةُ الشَّنَقِ بِتَهْمَةِ الْخِيَانَةِ، أَوْ الْبَقَاءُ هُنَا عَلَى هَذِهِ الْجَزِيرَةِ،
وَبَدَلُ قِصَارَى جُهْدِكُمَا لِلْبَقَاءِ عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ.»

نَظَرَ الرَّجُلَانِ بَعْضُهُمَا إِلَى بَعْضٍ، فَقَدْ كَانَا يَعْلَمَانِ أَنَّ عَوْدَتَهُمَا إِلَى الْبِلَادِ تَعْنِي
الْإِعْدَامَ؛ لِذَا لَمْ أَتَفَاجَأُ حِينَ طَاطَأَ كِلَا الرَّجُلَيْنِ بِرَأْسَيْهِمَا وَتَقَبَّلَا مَصِيرَهُمَا. فَفَكَّكْتُ أَيْدِيَهُمَا
وَأَقْدَامَهُمَا وَتَرَكَتُ لَهُمَا بَعْضَ مِيَاهِ الشُّرْبِ، وَأَخْبَرْتُهُمَا أَيَّنَ يَجِدَانِ مُخِيْمِي، وَكَيْفَ يَحْيِيَا

حَيَاةً طَيِّبَةً عَلَى الْجَزِيرَةِ إِذَا عَمَلًا بِجِدٍّ وَاجْتِهَادٍ. بَدَا تَعْيِسِينَ عِنْدَ رَحِيبي، لَكِنَّهُمَا عَلَى
الْأَقْلُ ظَلًّا عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ.

قُلْتُ لَهُمَا: «هَذِهِ الْجَزِيرَةُ جَنَّةُ الْآنَ، وَعَلَيْكُمَا مُعَامَلَتَهَا عَلَى هَذَا الْأَسَاسِ.»
مَعَ كَلِمَاتِ الْوَدَاعِ هَذِهِ تَرَكَتُهُمَا. وَنَظَرْتُ مَرَّةً أُخِيرَةً فِي الْأَرْجَاءِ، فَالْيَوْمَ الَّذِي ظَنَنْتُهُ
لَنْ يَأْتِيَ أَبَدًا أَتَى أَحْيَرًا؛ فَسَأَغَادِرُ الْجَزِيرَةَ. وَأَضْحَى سِجْنِي مَوْطِنًا جَمِيلًا، لَكِنْ عَلَى قَدْرِ
الرَّاحَةِ الَّتِي عَمَّتِ الْأَرْجَاءِ، إِلَّا أَنَّي اشْتَقْتُ إِلَى الْحَضَارَةِ، وَأَرَدْتُ الْعُودَةَ لَوْطَنِي.

الْعُودَةُ إِلَى الْوَطَنِ

التَّقِيْتُ بجمعة أَمَامَ الْمَنْزِلِ الصَّيْفِيِّ وَنَزَلْنَا إِلَى الشَّاطِئِ مَعًا. وَكُنْتُ قَدْ حَزَمْتُ بِالْفِعْلِ الْأَشْيَاءَ الْقَلِيلَةَ الَّتِي أَرَدْتُ أَخْذَهَا مَعِي: فُبِعْتِي مِنْ جِلْدِ الْمَاعِزِ وَمِظَلَّتِي وَآخَرَ بَبْعَاوَاتِي الْأَلِيفَةَ، وَبِالتَّأَكِيدِ كُلَّ الْأَمْوَالِ الَّتِي عَثَرْتُ عَلَيْهَا وَاحْتَفَظْتُ بِهَا مِنْذُ كُلِّ هَذِهِ السَّنَوَاتِ سَتَكُونُ الْآنَ ذَاتَ نَفْعٍ كَبِيرٍ!

غَادَرْنَا الْجَزِيرَةَ فِي التَّاسِعِ عَشَرَ مِنْ دَيْسَمْبَرِ ١٦٨٦؛ بَعْدَ ثَمَانِيَةِ وَعِشْرِينَ عَامًا وَشَهْرَيْنِ وَتِسْعَةِ عَشَرَ يَوْمًا مِنْ نَزْوِي عَلَيْهَا. وَبِحُلُولِ يُونِيُو مِنْ الْعَامِ التَّالِيِ، وَصَلْنَا إِلَى إِنْجِلِترَا. وَبَيْنَمَا كُنْتُ أَسِيرُ فِي سَوَارِعِ يُورْكَ، لَمْ أَصْدُقْ مِقْدَارَ التَّغْيِيرِ الَّذِي حَدَثَ عَلَى مَدَارِ الْخَمْسِ وَالثَّلَاثِينَ سَنَةً الْمَاضِيَةَ؛ فَالْمَدِينَةُ صَارَتْ أَكْبَرَ، وَالشُّوَارِعُ أَكْثَرَ ازْدِحَامًا، أَمَّا أَبَوَايَ فَقَدْ تُوَفِّيَا مِنْذُ سَنَوَاتٍ. وَمَا تَوَقَّعْتُ حَقًّا، فِي أَعْمَاقِي، أَنْ يَكُونَا عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ، لِكِنِّي حَزَنْتُ عَلَى خَسَارَتِهِمَا بِأَيِّ حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ.

بَعْدَ قَضَاءِ بَعْضِ الْوَقْتِ فِي يُورْكَ، قَرَّرْتُ السَّفَرَ إِلَى الْبِرَازِيلِ. فَقَدْ انْتَابَنِي الْفُضُولُ لِأَرَى مَاذَا حَلَّ بِمَزْرَعَتِي؛ لِأَرَى هَلْ لَا يَزَالُ شُرَكَائِي عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ، وَهَلْ مَزْرَعَتِي لَا تَزَالُ قَائِمَةً.

بَدَأْنَا رِحْلَتَنَا أَنَا وَجمعة فِي الْبَحْرِ مُتَّجِهِينَ إِلَى الْبِرَازِيلِ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي أَبْرِيلِ سَنَةِ ١٦٨٨. وَقَدْ اخْتَلَفَ الْبُلْدُ أَيَّمَا اخْتِلَافٍ! وَتَوَفِّيَ الْكَثِيرُ مِنْ أَصْدِقَائِي وَشُرَكَاءِ الْعَمَلِ الْقَدَامَى. وَلِحُسْنِ الْحِظِّ أَنْ وَيْلَزْ، صَدِيقِي الْقَدِيمِ وَجَارِي، كَانَ لَا يَزَالُ عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ، وَكَانَ قَدْ ازْدَادَ ثَرَاءً مِنْ نَجَاحِ مَزْرَعَتَيْنَا، وَحِينَ وَصَلْتُ أَنَا وَجمعة إِلَى عَتَبَةِ بَابِهِ، فُوجِئَ جِدًّا

لِرُؤْيَيْتِي؛ حَتَّى إِنَّهُ لَمْ يَتَعَرَّفْ عَلَيَّ فِي الْبِدَايَةِ! وَاسْتَعَدْتُ مَزْرَعَتِي، وَجَنَيْتُ رَبْحًا وَفِيرًا حِينَ بَعْتُهَا بَعْدَ بَضْعَةِ أَشْهُرٍ.

بَدَأْنَا سَرِيعًا فِي تَنْفِيزِ حُطِّ الْعُودَةِ إِلَى إِنْجِلْتَرَا، فَقَدْ تَقَّتْ إِلَى الْحَيَاةِ الْهَادِيَةِ الْمُطْمَئِنَّةِ، الَّتِي أَرَادَهَا لِي أَبِي مِنْ قَبْلُ مُنْذُ كُلِّ هَذِهِ السَّنَوَاتِ؛ قَبْلَ زَمَنِ مِنْ شُرُوعِي فِي أَيِّ مُغَامَرَةٍ، وَقَبْلَ زَمَنِ مِنْ قَضَاءِ مَا يُقَارِبُ عُمْرِي كُلَّهُ حَبِيسًا عَلَى جَزِيرَةِ مَهْجُورَةٍ. وَلَعَلِّي اسْتَطِيعُ الْآنَ — فِي شَيْخُوخَتِي — الْإِسْتِمْتَاعَ بِالْحَيَاةِ الَّتِي أَرَادَهَا أَبِي لِي. لَكِنْ عَلَيْنَا، أَنَا وَجَمْعَةٌ، الْعُودَةَ إِلَى الْوَطَنِ أَوْلًا. وَهَذِهِ الْمُغَامَرَاتُ، يَا أَصْدِقَائِي الْأَوْفِيَاءَ، هِيَ أَحْدَاثُ قِصَّةِ أُخْرَى لِاحِقَةٍ.